
البيدق
رواية
الأحمر
أحمد حسن خالد
ساحر الكتب
دار ن للنشرو التوزيع

«كان المفكرون قديمًا يرون أن اكتشاف العقل للحقيقة ليس أمرًا غريبًا، إنما الغريب هو عجزه عن اكتشافها».

ابن خلدون

(ابني! هذا سيفك لا ترفعه على امرأة أو عجوز أو طفل، ولا ترفعه على ضعيف واحذر يا بني أن ترفعه على جبان؛ لأنك إن قاتلته رفعت منزلته وإن غلبته أو قتلته شانك وحط من قدرك.

هذا سيفك، نُقش عليه اسمك يسبقه لقبُك الذي لقبتك إياه وهو أمانة بعنقك فلا تخُنْها، فإن كتب اللهُ عليك أن تفتح بلادًا فافتح بالحق، لا تغتر يا بني بقوتك؛ فإنها فانية، لا تسخرها إلا على كل طاغٍ متجبر واخفض جناحك على من يسترحمك واجعل عفوك عمن تهزمه حمدًا لله على قدرتك عليه.

واعلم يا بني أن الشجاعة ليست فقط بخوض المعارك، وإنما بقدرتك على الرجوع إلى الحق، فلا تأخذك العزةُ بالإثم واذهب للحق ولو كان في بلاد سحيقة.

ولا تستنكف أن تشاور معاونيك المخلصين منهم، فلا خاب من استشار، ولا نصرة لمن انفرد برأي، قوتك يا ولدي في الجماعة فهم خيرُ سند؛ فاجمع ولا تفرق وأخيرًا سيفك تاريخك فحافظ عليه فإن ضاع منك ضعت وهلكت!).

(1)

يوم الإثنين الموافق 1/6/2020- تذكر ذلك التاريخ جيداً!

عندما تراه بقامته الطويلة وجسمه العريض المتماسك، تشعر بمهابة كمهابة مبنى شاهق فخيم لا تملك حينما تراه سوى أن تقف له إجلالًا وتعظيمًا، ورغم ملامح وجهه الجادة القوية إلا أنها بردًا وسلامًا على من ينظر إليه، وعيناه الثاقبتان تنمّان عن شخصٍ حادِ الذكاء بعيد النظر هو المقدم (محمد نجيب) رئيس قسم التحقيقات الذي عقد حاجبيه وهو يقرأ إخبارية بوقوع أربع جرائم قتل متلاحقة لأعضاء لجنة تحكيم مسابقة أدبية شهيرة بمنازلهم، فأعد عدته؛ ليذهب إلى أول شقة ارتكبت فيها أول جريمة قتل، ولما وصل وجد رجال الأدلة الجنائية يفحصون كل ركن بالشقة، اقترب من شاب متوسط القامة فقال لذلك الشاب بجدية:

(يا نقيب حسام أفدني بالمعلومات).

(القتيل اسمه (مرتضى عبيد (رئيس لجنة تحكيم مسابقة شهيرة، أخبرتني ابنته أنه عند دخولها الشقة وجدته ملقًى على أرضية الصالة، وبه جرحٌ غائر برقبته من الناحية اليسرى).

نظر إلى الجثة ليجد مشهد غريبًا ومفزعًا، فقد وجدها

جثةً لرجل ساقطًا على رجليه وكأنه ساجدًا ولكنه في حالة ارتخاء، أما هو فقد وقف أمام الجثة يـتأملها بعينين ثابتتين، وبعد فترة طويلة ارتدى قفازًا ومال عليها ليتفحصها ليجد جرحًا متهتكًا بطريقة وحشية بالرقبة من الناحية اليسرى، وعينين جاحظتين، وبعد أن انتهى من المعاينة، قال لنفسه يحدثها: هذا لا يمكن أن يكون فعلٌ بشريّ، وإني لأستبعد تمامًا أن يكون من فعل كلب مثلًا، فالشقة تقع بالدور الثاني، مما يصعب عليه الصعود إليها، هذا وإن فُرض جدلًا أن ثمة حيوانٌ يستطيع الصعود إلى الدور الثاني، فإن باب الشقة كان مغلقًا حسبما قررت ابنة المجني عليه، فكيف دخلها إذن؟! .

اقترب من النافذة وأكمل حديثه الداخلي (هذه المنطقة عامرة بالسكان، فمن المستبعد وجود كلاب ضالة بها).

أخذ يتجول في الشقة فوجد تلك الفتاة، ابنة القتيل منهارة على أحد المقاعد تبكي بحرقة، فغض الطرف عنها، ودخل إلى غرفة المكتب التي كانت عن يساره، ليجد ملفات صُفت فوق بعضها، وفوق تلك الملفات وضعت ورقة، مدون عليها (القصص المقدمة بالمسابقة)، ولفت انتباهه ملف وُضِعَ جانبًا، وفي هذه اللحظة سمع خطوات تدخل المكتب خلفه فقال دون أن يلتفت:

(هل مازالت المسابقة قائمة؟).

(لا يا سيدي معلوماتي أن المسابقة انتهت وكان توزيع جوائزها اليوم).

(هل هذه المسابقة شهيرة لهذا الحد؟!). (نعم يا سيدي وهي لا تقتصر على مصر فقط بل تمتد من المحيط إلى الخليج يا سيدي.).

قال المقدم (محمد) بلهجة آمرة:

(أريد هذه الملفات على مكتبي للفحص).

سأل النقيب (حسام) مستغربًا: (وماذا ستفيد في القضية يا سيدي؟!).

لم يعقب المحقق عليه وغادر الشقة ويتبعه ذلك الضابط -الذي كان يحرك رأسه في استغراب-؛ لاستكمال باقي المعاينات لجثث الأعضاء الثلاثة، والتي لم تأتِ بجديد، فطريقة القِتلة واحدة، هو الجرح المتهتك بالناحية اليسرى من الرقبة وجحوظ العينين ذاته، كما لاحظ أن الجثث ملقاة بطريقة عشوائية في حالة الارتخاء الذي كانت عليه الجثة الأولى، قال المحقق لنفسه يحدثها: يبدو أن هناك علاقة بين المسابقة، ومقتل هؤلاء الأعضاء! ولكن ما أهمية هذه المسابقة حتى تودي بحياتهم بهذه الطريقة البشعة؟!

***

طرق النقيب (حسام) باب اللواء (الهمشري) فأذن الأخير بالدخول فدخل إليه النقيب (حسام) فصافحه بترحاب وأشار له بالجلوس ثم سأله:

(كيف حالك مع المقدم (محمد نجيب) ؟).

(إنه شخص غريب الأطوار لقد انتشرت عليه أقاويل بميله إلى العزلة والاختصار عن باقي زملائه في العمل، البعض يقول إنه متكبر والبعض الآخر يقول إنه شخصية غامضة تخبّئ بطياتها سرًا كبيرًا).

كان (الهمشري) يستمع إليه في اهتمام دون أن يعلق على كلامه مما أضطر الآخر أن يواصل حديثه:

(أتعلم يا سيدي إنه طلب ملفات القصص المتعلقة بقضية مقتل أعضاء لجنة التحكيم بتلك المسابقة، وقبلها وقف أمام كل جثة من الجثث الأربعة لا يفعل شيئًا سوى النظر إليها).

تنحنح (الهمشري) ثم قال:

(الآن عرفت إلى أيّ حد وصل قصور نظركم، إنكم حقًا ضباط تجتهدون في عملكم ولكنكم لستم مبدعين بقدر (محمد نجيب (إنه ليس مجرد محقق ذكي بل هو موهوب،

فريد من نوعه ولقد اخترته وهو رئيس قسم التحقيقات ولم أكلف أي محقق تحت رئاسته لأن هذه القضية غريبة، ولن يصلح لها سوى هذا العبقري). أتبع قائلًا قبل أن يتفوه النقيب (حسام) بأيّ كلمة:

(ما أطلبه منك الآن هو أن تتعلم من ذلك المحقق الموهوب، راقب أفعاله عن كثب إذا كنت تريد أن تكون على الأقل محققًا ناجحًا).

لم يكن يعني للمقدم (نجيب) ما يقوله عنه زملاؤه ولا يلتفت إلى نظرات مساعده التي باتت تفضحه، هو يرى دائمًا أن عقلَه نعمةٌ من الله لابد أن يحسن استخدامها هو سيفه البتار الذي يحارب به في معركة لا يعلم فيها من العدو ولا متى ستنتهي، لم يكن غريب الأطوار مثلما تناقلت ألسنتهم، ولكنه فريد من نوعه، عقله ينتمي لعصر الأفاضل الذين تبارزوا بعقولهم وسخّروا أنفسهم في خدمة العلم والناس.

أدلف المقدم (نجيب) إلى مكتبه، وهو يعمل تفكيره، أغلق نور مكتبه، ليكتفي بنور المصباح الذي على مكتبه، وجلب علبة صغيرة بها حلوى مختلف ألوانها، سحب واحدة ووضعها بفمه؛ ليمضغها باستمتاع وهو يقرب إليه هذه الملفات الخاصة بالمسابقة، إلا أنه تجنب مؤقتًا ذلك الملف (الذي كان موضوعًا جانبًا بشقة رئيس لجنة التحكيم).

بدأ في قراءة القصص المقدمة الواحدة تلو الأخرى إلى أن انتهى من قراءتها بعد مرور ساعة، وعرف من مطالعته لهذه القصص أن المسابقة كانت تدور حول ما وصل إليه الناس نتيجة انتشار الفيروس المسمى (كوفيد 19).

لم يتبقَ أمامه سوى هذه القصة التي نحّاها جانباً منذ البداية، جذبها إليه وقرأ عنوانها (القصة الأخيرة)، هذا عنوان مثير هكذا قال لنفسه، ولكنه قبل أن يقرأها قلب صفحاتها سريعًا، ووجد في آخر صفحة وقد ذيلت بتوقيع (ابن التنين). عقد حاجبيه وهو يتمتم متعجبًا: (ابن التنين!).

فتح أولى صفحات القصة؛ ليقرأ السطور التالية:

(أنا الذي يخضع إلى كل مرتاع خائف ولم أخضع لأحد سوى محمد بن مراد!).

عبس قليلًا وهو يتساءل (ما هذا؟!)، استمر في القراءة، وإذ به في مدينة، وأناس يرتدون ملابسَ العصور الوسطى يشاهدون آخرين يلقون من أعلى على أوتاد حادة مثبتة على الأرض لتخترق أجسادهم وتنفجر الدماء من أجسادهم وسط صراخ ونحيب الناس، فأخذ يتنفس بعمق ثم زفر بقوة مع إبقاء عضلات بطنه مشدودة، ثم أغمض عينيه قليلًا ليجد نفسه بمكتبه، فستأنف القراءة وهو ممتقع الوجه ثم توقف فجأة؛ لينظر إلى الساعة، فوجد أن عقرب الثواني يسير

ببطء شديد، بعدها شعر بأن جسمه وكأنه على جمر ساخن من شدة ارتفاع درجة حرارته، وقد تعرق تعرقًا شديدًا، أغمض عينيه ثم فتحهما ليجد نفسه في بقعة من الأرض، وجد أمامه أوتادًا طويلة مثبتة بالأرض تخترق أجساد جنود يرتدون زِيًّا عثمانيًّا، كان الوتد يخترق أجسادهم، ودماؤهم تكسو الأرض ساخنة، تحكي عن وحشية وقسوة، ألقى نظرة إلى وجوه أولئك الناس المخوزقة، ليرى بها كمّ الآلام والمعاناة التي بدت وكأنها منقوشة وليست مجرد آثارًا.

حاول مرة أخرى أن يتنفس ولكن بعمق أكثر هذه المرة، فقد شهق ليملأ صدره بالهواء ثم زفره ببطء، إلا أنه لم يستطع أن يقاوم الإرهاق الذي حل به، ونظر بعينين متعبتين ليجد نفسه في المدينة ذاتها، ولكن هذه المرة رأى أمامه فارسًا يرتدي خوذة عثمانية يمتطي خيلًا أدهمًا، ويرفع بيده اليمنى سيفًا من الفولاذ الدمشقي، نُقش عليه اسمٌ لم يُميزه في البداية.

عرف في نفسه أن تمرين التنفس لن تُجدي نفعًا، ولكنه قاوم حالة اللاوعي المسيطرة عليه مخرجًا هاتفه المحمول وضغط على زر الاتصال وقال:

(حسام تعال فورًا إلى المكتب فإني متعب، وأحتاج للذهاب للمستشفى على وجه السرعة!).

دخل (حسام) إلى مكتب المقدم (محمد) فوجد الأخير جالسًا على كرسيّ مكتبه، ينظر إليه وقد جحظت عيناه في اندهاش وهو يصيح قائلًا (الفاتح... الفاتح!).

فهرع (حسام) إليه وأمسك بيديه وقال له: (أنا حسام فتحي يا سيدي ولست حسام الفاتح...! (قال المحقق بصوت واهن: (أريد أن أذهب إلى المستشفى).

(لا تقلق يا سيدي هم في الطريق).

***

في الغرفة الراقد بها المقدم (محمد) والذي كان جالسًا على سريره متأملًا هادئًا.

فاجأه الطبيب الذي صافحه، وقال بابتسامة خفيفة تكسو وجهه:

حمدا لله على السلامة يا سيد (محمد). صافحه المحقق بدوره دون أن ينبس بأيةِ كلمة، فسأله الطبيب بشيء من التحرج:

(أود أن أخبرك يا سيد (محمد) أن التحاليل أثبتت أنك تتعاطى..).

لم يكمل الطبيب تحرجًا، ففهم الآخر مقصده وسكت،

فعقب الطبيب

وهو يتحاشى النظر إليه:

(ستتعافى قريبًا يا سيدي لا تقلق.. الأمر بسيط).

أما المحقق فأمسك بهاتفه وأخد يضغط أزراره ثم ضغط زر اتصال ليقول: مرحبًا يا صديقي!. في الوقت الذي دخل فيه النقيب (حسام) إلى المحقق، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة فأشار له بالجلوس، ثم قال له كمن يدلي بخبرٍ لا ريب فيه:

(الآن اكتملت خيوط القضية أمامي، لقد توصلت لحل طلاسمها أخيرًا، ولكن قبل أن أخوض معك في كيفية حلها إليك القصة كاملةً كما تخيلتها!).

***

(2)

(أنا الذي يخضع إلى كل مرتاع خائف، ولم أخضع لأحد سوى محمد بن مراد).

تلك العبارة قرأها الأستاذ (مرتضى عبيد) رئيس لجنة التحكيم الذي اندهش لغرابة هذه الجملة، عدل من عويناته الكبيرة قديمة الصنع على عينيه ثم فتح أولى صفحات تلك القصة؛ ليقرأ ماذا يكتب هذا الكاتب بين طيات ملفه.

(لم أرسل قصتي لتقيّموها بل لتروا نهايتكم إذا لم أحصل على الجائزة! فاسعَوا جاهدين، أن تنفذوا ما آمر به).

لا يدري (مرتضى (لماذا سرت قشعريرة باردة بجسده أحدثت انتفاضةً به، أكمل قراءة هذا النص وكأنه مجذوب من هؤلاء المجاذيب الذين يسيحون في الأرض بلا هدف.

(لا أستطيع أن أنكر بشدة رغبتي الملحّة في أن أربح جائزتكم الرفيعة، وأود أن أخبرك سيدي أنني كاتبٌ محنَّكٌ أستطيع أن أطوع قلمي؛ لأعبر عما يضخه عقلي من أفكار، وكوني أعيش منذ قرون فهذا ساعدني أدبيًا كثيرًا، فلقد قرأت آلاف الكتب لأعظم المؤلفين وأعمقهم فكرًا، وتتلمذت على يد أفضل العلماء، وورثت العلم كابرًا عن كابر، ومن العلوم التي برعت فيها هو العلم البيولوجي، وأجريت الكثير

من التجارب فأصبحت أمهر المهرة في صناعة الفيروس، ومضاده.

أعرف جيدًا أنك لن تصدق ما كتبته من سطور وإنك ستنعتني بالمجنون، ولكنك ستصدقني حتمًا حينما تصاب بذلك الفيروس الذي وضعته عند ملامستك لأوراق قصتي، وأخيرًا وليس آخرًا، عليك وأعضاء اللجنة أن تتشبثوا بطوق نجاتكم بأن تعطوني الجائزة، وسأعطيكم في المقابل مضاد هذا الفيروس). ما إن انتهى من قراءة تلك السطور حتى تعرق بشدة وشعر بارتفاع درجة حرارة جسمه!

(لا يمكنني أن أتخيل ماذا حدث بعد ذلك أو ماذا رأى رئيس اللجنة على وجه التحديد ولكن لنقل إنه رأى كائناتٍ مخيفة أو خفافيشًا أو شيئًا من هذا القبيل). قالها المحقق وهو يتفرس في وجه مساعده ليراقب تأثير ما رواه له من خلال تلك التعابير التي طُبعت على وجهه والتي لم تكن سوى مزيج من الاندهاش والغضب!

قال النقيب (حسام) في غضب:

(هذا المجرم... لقد وضع فيروسه اللعين بأوراق القصة).
ضحك المحقق وقال:

(ليس هناك فيروس من الأصل!).

(وكيف ذلك؟!).

(لقد فكرت في أن هذا المجرم قد وضع مادة بالأوراق تعطي لمن يلمسها أعراضًا كأعراض فيروسٍ ما، ولكني كنت أحتاج إلى مَن يؤكد لي هذه الفكرة؛ فقمت بالاتصال بصديقي الدكتور (شريف) رئيس المعمل الكيمائي وكلفته بالذهاب إلى مكتبي وأخبرته بإن يحضر ملف القصة ولكن عليه أن يمسك به بواسطة قفاز، وأن يرتدي كمامة طبية، وبالفعل قام بتحليلها وأخبرني هاتفيًا أن المادة التي خالطت الاوراق هي مخدر الـLcd والذي يتعاطاه الشخص عن طريق الملامسة والتي تنتقل بدروها إلى دمائه والتي تتسبب في صنع تلك الهلاوس).

(وهل تعرضتَ لهذه الهلاوس يا سيدي).

(نعم ولكن لم تتمكن مني كما تمكنت من المجني عليهم، فأنا أمارس تمارين التأمل إلا أنني في آخر الأمر أحسست بثقل تلك الهلاوس، فأسرعت بالاتصال بك أما المجني عليهم فقد غرقوا في بحور مخاوفهم، والتي دفعتهم للامتثال لهذا المجرم المخبول؛ أملًا في النجاة بأنفسهم، فلم يكن أمامهم سوى أن يعطوه الجائزة، ولكن المفاجأة أنه لم يعطِهم الترياق كما وعدهم وإنما أعطاهم جرعةً أخرى من ال (lcd) وهذا ما أكده لي هاتفيًا الطبيب الشرعي حينما طلبت منه

تحليل دم الضحايا، فأخبرني بوجود نسبة من هذا المخدر في الدم).

(ولكن كيف تمكن القاتل من إعطائهم جرعة ثانية من هذه المادة في حفل توزيع الجائزة؟!).

أشار المحقق إلى ذلك الكومودينو الذي بجوار السرير وقال:

(هذا شريط الكاميرات التي سجلت الحفل لقد طلبته ووصل قبل أن تدخل إليّ). اقترب منه وهو يقول:

(لقد طلبت شريط الكاميرا، وطلبت من المبرمج المختص بتحويل ذلك الملف بحيث نستطيع مشاهدته على حاسوبي المحمول وبالطبع لم أكن لأشاهد إلا وأنت معي). ضغط المحقق على زر التشغيل بحاسوبه المحمول ليبدأ الفيديو في العمل. ظهر شاب يرتدي بِزَّةٍ سوداء وتلك الرابطة الصغيرة التي زيّنت رقبته وهو يتكلم، بالطبع لم يكن الصوت متاحًا سماعه، فقط المشاهد التي كانوا يراقبونها بتركيز شديد، أشار ذلك الشاب إلى رجل كان يجلس بمقعد وسط ثلاثة من الرجال اصطفوا جالسين بجانبه فبدوا جميعًا وكأنهم قضاة محكمة.

قال المحقق شارحًا:

(هذا مرتضى عبيد وباقي أعضاء المسابقة). وصدق حدس المحقق فبعد أن أمسك الميكرفون وبعد أن تحركت شفتاه بالكلام، تقدم شاب طويل نحيف بطريقة لافتة، جعلت المحقق (نجيب) يقترب من الحاسوب وقال لمساعده دون أن ينظر له:

(انظر لهذه اللقطة وركز جيدًا). فما كان من الآخر سوى أن ركز على ذلك المشهد والشاب يصافح كل أعضاء اللجنة، فأوقف المحقق الفيديو فجأة وقال:

(هل لاحظت شيئًا؟!).

(لا لم ألحظ شيئًا).

صمت المحقق قليلًا ثم قال وهو يضغط على الماوس:

(سأعيد المشهد من أول ما اقترب الشاب من رئيس اللجنة). قال المحقق:

(راقب ذلك الشيء الذي بيده ويعطيه إلى رئيس اللجنة).

(إنها..!). قاطعه المحقق قائلًا:

(إنها قارورة صغيرة جدًا!).

أخذ النقيب (حسام) يتمتم ببعض العبارات غير المسموعة إلا أن واصل المحقق حديثه وهو يشير إلى شاشة الحاسوب:

(انظر إنه يقدم نفس القارورة لكل عضو من أعضاء اللجنة! إنه يخرجها من داخل كُم ذلك الرداء الذي يرتديه! يبدو أنه يجيد الألعاب السحرية!).

شهق (حسام) قائلًا:

(هذا غريب حقًا!).

(الغريب بالفعل أن وجهَه غيرُ واضح بالكاميرا وكأن قد تم تشويشه!)

***

بعد أن تملكته الهلاوس والخيالات فأصبح كالخرقة التي تعبث بها الريح كيفما شاءت، نظر الأستاذ (مرتضى عبيد) رئيس لجنة المسابقة إلى الباب ليرى شبحًا لرجل رؤيته مشوشة، كان ذلك الشبح قادمًا إليه ببطء، فبدا إليه وكأنه قادم من عالم البرزخ.

لم يكن الأستاذ (مرتضى) ليستبين ذلك الشبح وهو يفتح فمه في ظل هذه الغيمة من عدم الرؤية يخالطها مزيج من الغموض والرعب!

كان لا يستطيع أن يتأكد هل كان ذلك الشبح يفتح فمه على مصراعيه حقًا؟! أم هي أوهام؟! هل يرى بالفعل تلك

الأنياب البارزة التي لاحت من فمه؟! ولكن ما لا يستطيع إنكاره تلك الأنياب التي غُرست برقبته؛ ليعرف أن ما رآه ليست بأوهام، أخذ يعاني الألم حتى خرَّ ساقطًا في حالة ارتخاء مخيفة، فبدا كقطعة قماش بالية، وبات ميتًا يناجي السكون.

***

فغر النقيب (حسام) فاه بعدما سمع من المحقق تفاصيل الجريمة!

فقال للمحقق سائلًا:

(هذا ما تخيلته من تفاصيل جريمة قتله لرئيس اللجنة؟!). قال المحقق:

(بالطبع، وقد تكرر ارتكاب هذه الجريمة مع الثلاثة أعضاء الآخرين بطريقة متقاربة، لا أجزم أن أقول إنها متطابقة، المدهش في الأمر أنه تسلل لداخل الشقة دون أن يكسر باب الشقة! والأدهى من ذلك أنه حتى لم يفتح الباب أو يلمسه بيده وذلك ما أثبته فريق الأدلة الجنائية!). قال (حسام) وبعينيه لمحة شك:

(أتريد أن تقول لي أن القاتل مصاص دماء؟!).

ابتسم المحقق قائلًا:

(ليس مجرد مصاص دماء عادي).

أتبع قائلًا بحركة مسرحية:

(أقدم لك الكونت دراكولا). قال (حسام) في تحرج:

(أراك يا سيدي لا تزال تتملكك بعض الهلاوس). ضحك المحقق وقال:

(لا ألومك يا صديقي ولكنك ستعذرني حينما أكشف لك حقيقة الأمر؛ فعند قراءتي للقصة اصطدمت بأول جملة فيها وهي (أنا الذي يخضع إلى كل مرتاع خائف ولم أخضع لأحد سوى محمد بن مراد) فبجانب غرابة الجملة تساءلت مَن هو محمد بن مراد؟! (ثم استوقفني توقيع الكاتب بنهاية القصة (ابن التنين)؛ مما دفعني للبحث عن ترجمة هذه الكلمة فتبين لي أنها تعني باللاتينية (دراكولا)، ومن خلال بحثي عن هذه الشخصية تبين لي أنه كان أميرًا لولاية ترانسلفانيا في القرن الخامس عشر وعُرف عنه أنه أميرٌ دمويٌّ، أكثر من سفك الدماء وكان يردي ضحاياه مقتولين بالخازوق فلُقب (بفلاد المخوزق)، ولقد حاربه السلطان العثماني (محمد بن مراد والملقب ب (محمد الفاتح).

(لقد تذكرت الآن يا سيدي، فلقد كنت تردد كلمة (الفاتح)

عندما دخلت عليك مكتبك).

(هذا صحيح فلقد رأيت اسم (محمد الفاتح) منقوشًا على سيف يحمله فارس يرتدي خوذةً ويمتطي جوادًا).

ندت عن النقيب (حسام) إيماءة بعدم التصديق قرأها المحقق ولكنه تجاوزها تماما ولم ينبس بأيّة كلمة.

سأل النقيب (حسام):

(هل ستكتب محضرًا بما قلته يا سيدي؟!).

(وماذا سأفعل غير ذلك؟!).

***

قطب اللواء (الهمشري) جبينه وهو يقرأ التقرير الذي كتبه المقدم (نجيب) وقال بعد أن انتهى منه:

(رغم أن توصلك لحل هذه القضية مستند لأسلوب علميّ صحيح إلا أنه غريب!).

(نعم ولكن هذا ما حدث هناك العديد من الأمور التي أثارت المزيد من التساؤلات! منها الدخول إلى شقق المجني عليهم دون أن يكون لآثار فتح لثمة باب أو حتى كسر، طريقة القِتلة نفسها، تلك المادة التي وضعت بصفحات القصة، فيديو تسليم الجوائز إذا شاهدته بعناية ستجد أن ملامح

ذلك الشاب مشوشة رغم جودة الفيديو، كل هذا يقول ويشير ويؤكد أن من فعل هذه الجرائم هو ذلك المجرم عتيد الإجرام).

(كان من الأفضل تكون الجريمة ضد مجهول ولكن هل يتقبل الرأي العام ما سنقوله؟!).

قال المحقق بنبرة قاطعة:

(يا سيدي نحن لا نبدل الحقائق ولا نزينها، نحن نعرضها كما هي وعلى اللبيب أن يفهم ظاهر الأمور وباطنها).

***

(3)

مشهد لم يره في أي يوم ولا يعتقد أن يراه بعد ذلك، رغم أنه يثق بعينيه وإدراكه إلا أنه قد ساوره الشك فيما يبصره، وكيف لا يشك وهو يرى أمامه رجلًا يرتدي رداءً أسودًا طويلًا، لم يستبين وجهه! تحوم فوقه خفافيش تصدر أصواتًا كصريخ الأطفال، التفت ليرى فارسًا يرتدي خوذةً يمتطي حصانًا بدا كظل أسود -سلويت-، فلم يستبين ملامحه، إلا أن ذلك الفارس كان لا يحمل سيفًا، أشار بسبابته وهو يرفع حصانه لأعلى إلى ذلك الرجل المريب الذي تطير من فوقه الخفافيش الصارخة التي انطلقت إليه في سرعة بقصد الهجوم!

استيقظ (نجيب) من نومه ليجد نفسه راقدًا على سريره فشهق قائلًا:

(ياله من كابوس). أمسك بزجاجة الماء التي وضعها بجانبه ليرفعها إلى فمه ليتجرع قدرًا كبيرًا من الماء ثم نهض متوجهًا إلى الثلاجة ليفتحها، ثم تناول قطعة من الشيكولاتة، ليتناول بعدها جرعةً أخرى من الماء.

أضاء نور الشقة واتجه إلى أريكة كبيرة ليجلس ورجع برأسه ليريحها على الأريكة وسبح في بحر تفكيره.

انطفأ النور فجأة، ولم يلبث برهة يسيرة حتى عاد مرةً أخرى، التفت (نجيب) حوله في توجّس خفيف إلا أنه عثر على ورقة صغيرة وضعت على تلك المنضدة الصغيرة التي بجوار الأريكة، التقطها على الفور ليقرأ الآتي:

(اعلم يا سيدي أنك وإن توصلت للحقيقة، فإنه من العبث أن تحاول الإمساك بي؛ لأنه وإن سهل عليك إيجادي فسيسهل للعالم معرفة ما حقيقة ذلك الفيروس الذي بات يهددهم، ويخيفهم، ولتعلم أن مخططي الجرائم الكبرى -وأنا منهم- يملكون من الأفكار والمهارات التي تسبق عصرهم، ويصنعون جرائمهم، وركيزتهم فيها جهل الناس، وعزوفهم عن التدبر والامتثال إلى كل ما يخفيهم، وفي النهاية أخبرك أنني لم أمص دمك؛ لأني أعيش على دماء الغافلين الخائفين، ولستَ منهم).

***

(ولتعلم أن مخططي الجرائم الكبرى -وأنا منهم- يملكون من الأفكار والمهارات التي تسبق عصرهم، ويصنعون جرائمهم، وركيزتهم فيها جهل الناس!).

ارتشف (نجيب) رشفة من كوب النسكافيه، وهو يفكر في ذلك الخطاب المريب، فكر في أنه إذا غفل عن كون أن هذا القاتل من الصعب فعلًا الإمساك به والزج به في غياهب

السجون، فإنه لن يستطيع الالتفات عن خطورة تلك العبارة التي كتبها، إن هذا المجرم ينتقي فرائسه من الضعاف، والضعاف هنا ليس ضعاف البدن، ضعاف من نوع آخر، ضعاف استدام فيهم الداء وتوغل، والأمر الهام أن يبحث كل أناس على دواء لذلك الداء.

جاء مقدم النشرة يذيع خبر ويقول بصوت رخيم يخالطه الأسف:

(لقد أبلغ المسؤولون بقصر (طوبى كابى) بسرقة سيف السلطان (محمد خان) والمعروف بمحمد الفاتح.. إليكم التفاصيل).

مال (نجيب) بجذعه إلى الأمام في اهتمام وأمسك بريموت التلفاز ليقوم بتعلية الصوت:

قال رجل ممتلئ الجسم أشقر الوجه أصلع الرأس إلا قليلًا من الشعر على الجانبين بلغة تركية:

(اسمي ينال... أنا موظفٌ قديم في هذا القصر لقد فوجئنا بسرقة سيف السلطان (محمد بن مراد الثاني المعروف بالسلطان (محمد الفاتح) وهو مصنوع من الفولاذ الدمشقي. ومنقوش عليه اسم السلطان.).

استطرد بعد سكتة قصيرة:

(العجيب في الأمر أن كل شيء في مكانه. لا يوجد آثار لثمة شيء، وإن أجهزة الإنذار لم تنطلق كما لم ترصد كاميرات القصر أيّة مشهد لدخول السارق! ماذا يكون ذلك؟! أهو شيطان؟!).

غمغم (نجيب) قائلًا:

(شيطان؟!).

***

بدا ذلك الفارس بمشهد مهيب وهو يمتطي خيله الأدهم يرتدي خوذة عثمانية يمسك درعًا، أشار إلى رجل أرتدى رداءً طويلًا أبيضًا، له غطاءٌ يغطي وجهه، بأن يتبعه ولكن الأخير أشار له بأنه لا يفهم شيئًا، لم يكن الرجل المتخفي سوى (نجيب) الذي وجد نفسه رجلًا من العصور الوسطى.

غضب الفارس غضبًا شديدًا وأصر على إشارته، سكت (نجيب) وظهرت على وجهه علامات الحيرة، فساد الصمت بينهما تبادلا فيها النظرات وفجأة، تبدلت الصحراء التي كانا يقفان بها إلى ممر طويل تحده الخضرة من الجانبين، وأمامه قصر شاهق به ما يشبه العامودان شاهقان في الارتفاع، التفت (نجيب) إلى الفارس فلم يجد له أثرًا.

فتح عينيه ببطء ليجد نفسه راقدًا بسريره، فزفر ثم نهض بجزعه إلى الأمام وقال كلمةً واحدة:

(الفاتح!).

***

أخذ (نجيب) يرسم في ورقة أمامه بالقلم الرصاص، ثم رفع الورقة أمام عينيه وقال لنفسه:

(هذا القصر الذي رأيته في الحُلم).

كان الرسم احترافيًا إلى حد كبير، حتى أنه نظر إلى رسمته بشيء من الحنين متذكرا، أستاذه في المرحلة الاعدادية وهو يربت على كتفه قائلًا:

(موهبتك عظيمة يا محمد.. تجيد نقل أي شيء في خيالك إلى الورق). عاد من مدينة ذكرياته إلى بلدة الواقع، وأخرج هاتفه وأخذ صورةً لهذا القصر ثم رفعه على موقع البحث (جوجل) ليأتي مشهد القصر بصورته الطبيعية كتب أسفل اسم قصر (طوبى كابى بتركيا).

شرد بذهنه قليلاً ثم قال لنفسه يحدثها:

(إنها حتمًا إشارة!).

***

اعترى اللواء (الهمشري) الاندهاش وهو يقرأ ذلك التقرير الذي كتبه (نجيب) فكان يقرأ تارة ويرمق (نجيب) الجالس أمامه تارة أخرى، حمل التقرير بين طياته الآتي:

(بعد الاطلاع على ملف قضية مقتل أعضاء لجنة المسابقة الأدبية الأربعة، ومن معطيات هذه الجريمة الشنعاء، أوصلتنا إلى مرتكب تلك الجريمة وهو مجرم عتيد الإجرام، مجرم خرج من منطق البشر إلى منطق الوحش الذي يركض في غابته ينتظر فرائسه من المرضى الضعاف من البشر الذين مكنوه ولا شك من الإيقاع بهم في شركه، ولا أخفي عليكم أنه من الصعب علينا أو على أي جهاز من الأجهزة الشرطية أو حتى المخابراتية الإيقاع به، ليس مجرد صعب إنما هو المستحيل ذاته، ولكن بصيص الأمل هو أن نصل إلى نقطة ضعفه، والتي ربما تظهر إذا فتشنا عن تاريخه، وتاريخ هذا الشخص حسبما قرأت ملطخ بالكثير من الدماء، إلا أنني لما أعرف من تاريخه سوى القشور ولذلك أقترح الاتصال بالجهات المحققة في قضية سرقة سيف السلطان (محمد الفاتح) من القصر المعروف باسم (طوبى كابى) -والواقع بمدينة إسطنبول الذي أمر ببنائه ذلك السلطان سنة 1459 م- والاقتراح عليهم بإرسالي لمعاونتهم في حل لغز السرقة؛ وهذا لأن حدسي يخبرني أن المجرم في جريمتي القتل

والسرقة هو مجرم واحد هو الكونت دراكولا الدموي!).

قطب (الهمشري) جبينه قائلًا:

(تعاون مع جهات خارجية؟!).

(نعم يا سيدي لقد شرحت كل شيء في التقرير).

(هذا أمر غريب لم يمر علينا هذا الأمر أن نعمل على تحقيق قضية خارج القطر! ثم ما الفائدة من ذلك نحن مهمتنا أن نمنع الجرائم عن رعايا بلدنا).

سكت (الهمشري) ثم قال بعد تفكير:

(لطالما أثق بقدراتك يا سيد نجيب ولكن أنت تطلب أمرًا لا أعلم حقيقة أبعاده).

ألقى نظرةً على التقرير ثم قال:

(سأوقع على التقرير وأرفعه باقتراح الموافقة وأدعو الله ألا يكون سببًا في إحالتي للمعاش).

***

رفع (نجيب) السماعة وقال وقد ارتسمت على وجهه علامات الترقب:

(أهلا يا سيد همشري). سمعه يضحك ضحكه قصيرة ثم

قال:

(لدي لك أخبار سارة).

خرج من مكتبه يمشي بتؤدة كما يمشي الأسد ليس مختالًا فخورًا وإنما الواثق والقابض على زمام الأمور، كان يمر أمام الحرس الشرطيين الواقفين أمام مكتب كل مسئول، فيؤدون له التحية العسكرية ليس فقط لأنه من واجبات عملهم وإنما احتراما لتلك الهيبة التي نطقت بها ملامحه.

رغم أن الحارس أفسح له المجال ليدخل إلى مكتب اللواء (الهمشري) إلا أنه فضل أن يطرق الباب ليأتيه صوت بالداخل يقول: (تفضل).

فلما دخل نظر إليه (الهمشري) وقال بابتسامة:

(أنا اعرف طريقة طرقك جيدًا).

صافحه وهو يقول:

(رغم أنه مصرح لك بالدخول دون طرق ولكنك تصر على أن تطرق).

ضحك (نجيب) ولم يعقب وقال بصوت خفيض:

(مازلت أنتظر الخبر السار).

قالها وهو ينظر بابتسامة إلى النقيب (حسام) الذي كان يجلس على أريكة بأحد أركان المكتب، فحياه بإيماءة صغيرة من رأسه:

(أنت تعلم ما هو الخبر. ولكن سأصطنع أنك ستتفاجأ به). أبرز ذلك التقرير وقال:

(لقد وافقوا على طلبك أيها المحقق الهمام.. أنا على يقين أنك ستكون خير ممثل لنا هناك). رمق (نجيب) النقيب (حسام) بنظرة أخرى، ثم مال على اللواء الهمشري وهمس له بشيء وابتسامة خفيفة ترتسم على وجهه ثم استأذن للخروج.

امتلئ (حسام) بالفضول وخاصة لما نظر له (نجيب) نظرةً ذات مغزًى فتحول بنظره إلى (الهمشري) في الوقت الذي نظر له الآخر ولم ينطق بأية كلمة، فساد الصمت بينهما ملبدًا بغيوم الغموض.

***

اعتاد (نجيب) بعد يوم عمل يشحذ فيه عقله في كل مسألة تعرض عليه ليقتلها بحثًا وتدقيقًا، على السير في طريقٍ خالٍ من المارة، كانت تلك الليلة صافية برزت فيها النجوم بنورها وكأنها ترحب ببزوغ القمر الذي أعلن نفسه

عريسًا للسماء، بدت تلك الليلة هادئة، فألقى الهدوء بظلاله على ذلك الشارع الذي كان يسير (نجيب) فيه واضعا سماعات صغيرة تبث بأذنه أغنيةً هادئةً للمغنية (فيروز)، حتى برز أمامه أربعُ رجال رُسم الشقاء على وجوههم علامات وعلامات، قال الأول والذي كان أضخمهم:

(أخرج ما معك من نقود).

قال (نجيب) وابتسامة صغيرة ترتسم على وجهه:

(عفوًا لا أفهم لغتك الركيكة).

أبرز الضخم مطواة ليضعها على رقبته مرددًا:

(لا تكثر الكلام وأفرغ ما في جيبك).

كان هدوء (نجيب) مشابه لهدوء هذه الليلة التي أفصحت عن بدء معركةٍ بين ذلك المحقق وبين هؤلاء الأشقياء، نظر إليهم ومكث يسبح في صور أخذت تدور بخلده، صور غير مكتملة المعالم رأى فيها أشباحًا تطوف حول عينيه.

عاد من تخيلاته إلى تلك المواجهة التي لابد وأن يحسمها، فباغت الضخم بضربة قوية من رأسه، والتي من قوتها سقط ذلك الضخم على الأرض، وجّه أحد رفقائه لكمة إلى (نجيب) إلا أن الأخير سمع صوت يقول له:

(اقفز إلى الخلف). وبحركة آلية قفز إلى الخلف تبعها بلكمة في وجه ذلك الضارب وبيده الأخرى لكم الثالث، والتي استقرت بأنفه فأمسك بها متأوهًا، بادره الرابع بالهجوم، فتخيله (نجيب) وكأنه يحمل سيفًا، وتخيل نفسه وكأنه يحمل درعًا، وهذا الرجل يوجه له ضربه بالسيف والذي لم يكن سوى قبضته فصدها بدرعه والذي لم يكن سوى يده، ثم بلكمة من يده الأخرى استقرت بوجهه فسمع صوت فرقعة أسنانه، وأجهز عليه بمجموعة من اللكمات أسقطته فاقدًا الوعي.

كان الضخم قد أستعاد بعضًا من وعيه بعد ضربة الرأس القوية، ولكنه قد أيقن أن المعركة قد حسمت وانتهت فانسحب والباقيين مهزومين مدحورين.

***

(اقفز إلى الخلف؟!). هذا الصوت الذي سمعته أبدًا لم يكن وهمًا، لقد سمعته، الموقف ليس بغريب، هكذا كان يسبح (نجيب) في بحر تفكيره، لا تفارقه صورتي السيف والدرع، قطع تفكيره الخفق الذي على باب مكتبه فقال وهو يتملص من حبل شروده:

(تفضل).

دخل النقيب (حسام) وقال بصوت عالٍ يعكس ما بداخله من ثورة:

(لماذا اخترتني للسفر معك إلى تركيا؟!).

قال (نجيب) وكأنه لم يسمعه:

(هل قمت بترتيب أمورك قبل السفر؟).

(لا تتجاهل سؤالي لماذا ورطتني في هذه المهمة دون مشاورتي؟).

(يمكنك أن ترفض).

هنا سكت النقيب (حسام) ولم ينبس ببنت شفه، فاستطرد نجيب قائلًا:

(عليك أن تتعلم شيئًا جديدًا، أن تطور من مهاراتك وإلا صارت حياتك رتيبة لا قيمة لها).

قال (حسام) في تردد:

(ولكن كان يجب أن تخبرني).

نظر (نجيب) في عينيه مباشرةً واكتفى بابتسامة ذات مغزى، ارتسمت على وجهه وتركه بمفرده يعاني الصمت.

***

(4)

جلس (نجيب) وبجواره (حسام) بالطائرة متجهين إلى تركيا، كان (نجيب هادئًا، رابطًا حزام المقعد بإحكام وكذلك فعل مرافقه، ولما مرت المضيفة وقع نظرها على (نجيب) فسألته بلطف:

(ماذا تريد أن تشرب سيدي؟).

(كوبًا من النسكافيه.. مملوء للمنتصف أو زيادة عن المنتصف بقدر يسير). بينما طلب الآخر كوبًا صغيرًا من القهوة.

سأل (حسام) وفي عينيه نظرةً ساخرةً:

(لماذا حتى المنتصف فقط؟).

ابتسم «نجيب» بدوره مكتفيا بذلك دون أن يتفوه بحرف وأغمض عينيه لا للراحة ولكن للتفكير بهدوء فتراءى له مشهد تلك الأشباح التي كانت تطفو أمامه، قطب جبينه وكأنه يعتصر عقله لاستيضاح تلك الصورة، فإذا بيد تربت على كتفه ففتح عيناه ليجد (حسام) وهو يقول له:

(احمل كوب النسكافيه خاصتك).

مد يده وهو يحمل كوبه وهو ينظر إلى المضيفة بامتنان،

وأخذ يرتشف باستمتاع، بينما أخذ يحتسي الآخر القهوة وكأنه شيء روتيني معتاد وغاصا الاثنان في صمت عميق.

قرُب (نجيب) من إنهاء كوبه فلم يتبقى سوى قدرًا يسيرًا، مال بوجهه نحو النافذة بجواره ليتأمل ما هو محيط به، فتفاجأ بانعكاسٍ لوجه رجل أبيض له ذقن سوداء طويلة، يرتدي خوذة عثمانية تنتمي إلى العصور الوسطى، فوجد نفسه يتقهقر بوجهه قليلًا إلى الخلف، وما هي إلا بُرهة حتى اختفت الصورة من أمامه، والتفت إلى (حسام) الذي غطّ في نوم عميق ليرمق كوب القهوة الفارغ ثم عاد لينظر إلى (حسام) مستعجبًا، ثم ليغمض عينيه هو الآخر في راحة مؤقته.

***

وصلا إلى مطار إسطنبول فارتسمت على وجه (نجيب) ابتسامة من يخوض تجربة جديدة، إنه ولأول مرة يزور دولة تركيا وتحديدا إسطنبول، فكان يلتفت حوله وكأنه يحاول أن يحفظ ما يراه، وعند وصوله لصالة الاستقبال وجد من يلوح له فمال إلى (حسام) قائلا:

(يبدو أنه الضابط المكلف بانتظارنا).

اقتربا منه فوجداه شابًا أشقرَ الوجه شعره أصفر ذهبي

الذي صافحهما وقال لهما بلغة عربية:

(مرحبا بكما.. اسمي (انجين) المحقق في قضية السرقة المشهورة، وفضلت أن أكون في استقابلكما بنفسي).

كان المحقق التركي ينظر إلى (نجيب) بحركة لا إرادية وكأن بالأخير مغناطيس خفي يجذب من ينظر إليه ليتحدث إليه إلا أنه كان يرمق (حسام) بين الحين والآخر.

قال بود:

(والآن سأصطحبكما إلى فندق يدعى (أنتيك) فندق ممتاز سترتاحون فيه كثيرًا). واستطرد قائلا وهو مبتسم:

(وهو قريب من المسجد الأزرق ومتحف آية صوفيا والأهم من كل ذلك أنه قريب من قصر طوبى كابى!).

تمتم (حسام) قائلا:

(أراه يؤدي دور المرشد السياحي).

رمقه (نجيب) باستنكار وأشار إليه لمتابعة (انجين) فساروا جميعا إلى سيارة جيب سوداء اللون، أقلتهم إلى فندق (أنتيك)، قادهم (انجين) بعدها إلى داخل الفندق، ليقف أمام موظف الاستقبال وأخذا يتحاوران بلغة تركية.

لاحظ (نجيب) تغير بوجه مساعده فسأله:

(ماذا بك أيها النقيب لما هذا التوتر؟!).

(بصراحة لا أحب أن يرافقني أحد بالغرفة).

التفت (انجين) إلى (نجيب) وقال له:

(عذرًا سوف تكون لكل واحد منكما غرفة).

نظر (نجيب) إلى (حسام) مبتسما ثم قال موجها كلامه إلى (انجين):

(حسنا ... لا بأس).

غادر (انجين) الفندق بعد أن أوصل (نجيب) ومساعده إلى غرفهما بعد أن تأكد تماما من توفير كل سبل الراحة، بينما يصفّ (نجيب) أغراضه في نظام، كان (حسام) يواصل رحلة نومه التي كان قد بدأها بالطائرة من شدة الإرهاق الذي استحوذ عليه، في الواقع استحوذ على (نجيب) أيضا ولكنه تحمل ليتأكد أن كل شيء مرتب، ثم مدد جسمه على ذلك الفراش الوثير، كان ممسكا بكتيب دون عليه (رحلة إلى طوبى كابى)، قرأ أول سطور في ذلك الكتيب والذي كان تقول:

(إن أول من بنى قصر طوبى كابى هو السلطان (محمد خان الثاني) الذي فتح القسطنطينية وذلك عام 1459 وكان

اسمه في بادئ الأمر ب (ينى سراي (وتعني (القصر الجديد)، ثم تغير إلى اسمه الحالي (طوبى كابى (في القرن التاسع عشر).

كان إرهاقه يفرض كلمته عليه فإذا بعينيه تنغلقان رغمًا عنه إلا أنه كان يقاوم، وبينما هو هكذا فلمحت عيناه هذه الجملة:

(إذا عرفت من أنت فهذه بداية النهاية أو نهاية البداية!).

***

(إذا عرفت من أنت فهذه بداية النهاية أو نهاية البداية!). ترددت هذه العبارة على رأس (نجيب) وهو يقف بمطعم الفندق القابع على سطحه وهو يتأمل البحر الذي يطل عليه الفندق، جاءه النادل الذي حدثه بلغة تركية فأجابه بالإنجليزية أنه مصري ولا يتحدث سوى العربية والإنجليزية، فأومأ النادل متفهمًا وقال بلغة عربية وابتسامة رقيقة تكسو وجهه:

(معذرةً يا سيدي مظهرك الأوروبي خدعني). قال بعد سكتة وتلك الابتسامة تظل تنير وجهه:

(بماذا تأمُرني يا سيدي؟). تجاوز (نجيب) طلبه ولكنه بادله بسؤال:

(كنت أتوقع أن تحدثني بالإنجليزية وليس العربية).

(نعم يا سيدي.. هناك كثيرون يتحدثون العربية ولهذا أسبابٌ كثيرة كانوا في القديم يدرسون اللغة العربية لقراءة القرآن ولتعلم تفسيره ولكن كثر الإقبال على تعلم العربية للسياحة حيث يتوافد العرب إلى بلدنا وخاصة السوريون منهم وللتجارة وإن كنت أرى سببًا آخر وجيهًا لتعلمها). سأل (نجيب) في اهتمام:

(وما هو ذلك السبب؟!).

(السبب أننا في حاجة إلى معرفة تاريخنا يا سيدي، أباؤنا وأجدادنا يتحدثون العربية، فضلا أن أجدادنا القدامى الذين صنعوا تاريخا ضخمًا لن يُنسى ولن تُطوى صفحاته، كانوا يتحدثون بها فكيف لنا ونحن أحفادهم لا نتحدث بها).

سأل (نجيب) منبهرًا:

(من أيّ كلية تخرجت؟!).

(لقد تخرجت من كلية الشريعة جامعة أتاتورك يا سيدي). قال «نجيب»:

(كلامك رائع، ولكنهم يقولون إن اللغة الإنجليزية هي لسان العالم). هنا قال النادل:

(واللغة العربية هي لسان التاريخ يا سيدي!).

شاهد (نجيب) المحقق (انجين) وهو يتجه إليه فندت عنه ابتسامة، ولما بلغه، صافحه (نجيب) مشيرًا إليه بالجلوس وقال له:

(ماذا تريد أن تشرب؟).

(قهوة.. أنصحك بها هنا ستجدها كما يجب أن تكون). قال (نجيب) متحرجا:

(ولكني لا أميل إليها... أريد أن أشرب..).

قاطعه (انجين) قائلًا:

(جربها صدقني لن تندم).

تفاجأ (نجيب) من فرض رأيه بهذه الطريقة الغريبة إلا أنه رغم ذلك لم يرد رجاءه فأشار إلى هذا النادل بالموافقة.

قال (انجين) بعد أن شعر بالانتصار:

(نحتسي القهوة ونذهب إلى مكتب التحقيقات لنطلع على تطورات التحقيقات).

جاءهما النادل بقدحي القهوة، ليضعهما على المنضدة وابتسم لنجيب الذي ابتسم له بدوره، وغادرهما، لتهجم

حزمةٌ من أدخنة القهوة حاملة رائحة البن الفاخر الصنع أنف (نجيب) فانتشى فلم يلبث أن أمسك بقدحه وطبع شفتيه على طرف القدح ليذوق أول رشفه من قهوته فأغمض عينيه، وكأنه يريد أن يحفظ مذاقها بذاكرته فلا ينساها أبدًا.

سأل (انجين) بفضول:

(ما رأيك؟!). رفع له يده وقال له:

(أرجوك لا تقطع استمتاعي بالقهوة). ضحك (انجين) وقال:

(أرجو المعذرة).

أنهى قهوتَه بعد أن امتص رحيقها عن آخره، أخرج هاتفه المحمول وضغط على زر الاتصال بالنقيب (حسام)، فجاءه صوت الأخير يقول بصوت نائم:

(المقدم (نجيب) كيف حالك؟).

(أنا ومعي المحقق (انجين) ننتظرك للذهاب إلى مكتب التحقيقات).

(أحتاج بعض الوقت لأستفيق.. لقد نمت متأخرًا). قال بعد تنهيدة:

(سألحق بكما إلى مكتب التحقيقات!). أغلق نجيب الخط

ووجهه لا يخلو من الاستياء، فسأل (انجين):

(هل سيأتي معنا السيد (حسام)؟ لقد تأخر كثيرا).

(نعم تأخر ولذا سنذهب لمباشرةً العمل).

(هل سيلحق بك؟).

(لا أظن!).

***

(5)

كان (انجين) يراقب (نجيب) وهو يتصفح ملف القضية، والأخير يقرأ في سكون، وبعد أن انتهى تابعه (انجين) قائلًا:

(لقد لفت أنظارنا قضية مقتل أعضاء اللجنة، وذكرك بتقريرك المرفق بصورة القضية، أنك رأيت في حالة اللاوعي التي مررت بها رجل عثماني الهيئة والملبس يعتمر خوذةً عثمانية، ويحمل سيفًا من الفولاذ الدمشقي!).

وقبل أن يجيبه (نجيب) أتبع قائلا:

(أهنئك على جرأتك لذكرك هذه التفصيلة بتقريرك ولكن كيف نما إلى علمك خامة الفولاذ وأنت في خضم تخيلاتك؟!).

(لأنني قرأت كثيرا عن الفولاذ الدمشقي، وشاهدت له العديد من الفيديوهات). قال المحقق التركي بشيء من التحرج:

(على العموم ما قرأته من تقرير أو طريقة تحليلك للقضية ينبئ عن محقق محنك يمتلك أدواته). أومأ المحقق المصري في امتنان وقال:

(أريد أن أعاين مسرح الجريمة).

(لقد قمنا بالمعاينة بالفعل .. لا يحتاج الأمر لكثير من المعاينة أرى في ذلك هدرًا لمزيد من الوقت).

(أرجو المعذرةً ولكن لي أسلوبي الخاص في المعاينة الذي أتخذه وأحب أن أدون ملاحظات فيما أعاينه أو أباشره).

(لا بأس.. ولنعتبرها زيارة سياحية لمتحف طوبى كابى).

وقفا المحققان أمام بوابة قصر أو متحف (طوبى كابى) قال (انجين):

(ها هو السيد (ينال) يتجه إلينا هو من سيصطحبنا إلى داخل المتحف). أومأ (نجيب) برأسه متفهمًا وقال:

(هو من الموظفين المسؤولين وقد شاهدته عبر التلفاز وهو يتحدث عن سرقة السيف.).

(نعم).

صافح (ينال) (انجين) في صمت، ولما تحول إلى (نجيب) ليصافحه انتفض فجأة وكأن صاعقة سرت به، فسأل (انجين) باندهاش:

(ماذا حدث؟!).

أجاب وهو يتأمل وجه (نجيب):

(لا شيء).

لا يمكن أن يكون لا شيء مثل ما قال (ينال)، فردة فعله تقول إن هناك أمر ما ولكن إجابته المقتضبة حجبت شمس فضولهما.

اتجهوا من البوابة إلى الفناء وعلى جانب هذه البوابة وجد (نجيب) غرفة صغيرة على الجانبين، قال (ينال):

(فوق البوابة توجد شقة صغيرة وهي كانت خاصة بالسلطان (محمد الثاني) أُضرِم بها الحريق منذ فترة طويلة وقمنا بترميمها وبنائها ووضعنا بها مقتنياته بما فيها (سيفه) الذي سُرق للأسف).

أطرق في أسف بعد أن أنهى جملته ولكنه واصل حديثه قائلا:

(هذه الشقة التي ستعاينها ولكن هل تحب أن تقوم بزيارة المتحف وتنهي جولتك بالمعاينة؟!).

(أفضل أن أبدأ بالمعاينة أولًا ثم نتجول).

(كما تحب يا سيدي).

سأل نجيب وقد بدت على وجهه أمارات الشغف:

(يبدو أن سيف السلطان له قيمةٌ عظيمة كي يوضع

بالمتحف).

قال (ينال) مستنكرًا:

(بالطبع فهذا السيف مصنوع من الفولاذ الدمشقي والمعروف بصرامته وأنه غير قابل للاهتراء!).

هنا نظر (انجين) إلى (نجيب) بمزيج من الاندهاش والانبهار.

في تلك اللحظة كان (ينال) مستغرقَ النظر إلى (نجيب)، وللمرة الثانية يسأله (انجين) عما إذا كان هناك ثمة خطب فأشار بـأن لا شيء وقال في جدية:

(علينا ألا نضيع وقت المحقق المصري).

بالفعل اتجهوا إلى تلك الشقة، وما إن دخلوها حتى اشْتَمَّ فيها (نجيب) عَبَقًا غريبًا وبنشوة غريبة تسري بجسده، شعر بألفة من هذا المكان، رغم أنه تم ترميمه، فلم يعد قديمًا يتلحف بلحاف التاريخ!

رأى شبحًا لرجل له ذقن صورته مشوشة يتنقل من ركن إلى آخر، حتى استقر أمامه جالسا أمام منضدة صغيرة مزخرفة بنقوشات إسلامية وانهمك في كتاب يقرأ فيه.

قال (ينال):

(الغريب أن شيئا لم يتحرك من مكانه ولا يوجد آثار لقدم، ولم تعبث يد بأي شيء هنا!).

قال (انجين) مصدقا على كلامه:

(لقد رفع قسم الأدلة الجنائية البصمات فلم يجد بصمةً لأحد).

كان (نجيب) يسمع حديثهما ولكنه كان يصب جل تركيزه على التقاط تفاصيل المكان وحفظها بذاكرته، وكأنه آلة تصوير بشرية.

اصطحبهما (ينال) إلى غرفة بعد أن أشار (نجيب) له بانتهائه من معاينة الصالة الواسعة، وقال:

(هذه الغرفة التي كان بها السيف وكان يوضعه هاهنا).

نظر (نجيب) حيث أشار فوجد مسندًا له ما يشبه الفرعان ينتهه الفرع الواحد إلى شكل نصف دائرة، هذا المسند موضوع على منضدة منقوشة بأحرف عربية من الذهب.

وفجأة نظر إلى باب الشقة الذي دخلوا إليه، وتخيل شبح المجرم وهو يتشح بالأسود، وهو يدلف بسرعة إلى الشقة ويتوجه بخطوات غير بشرية إلى تلك الغرفة الذي بها المسند الموضوع عليه السيف ليأخذه في لمح البصر ليعود

مرةً أخرى من حيث أتى.

دار (نجيب) بناظريه على كل ركن من أركان الغرفة يقتلها بحثًا كعادته، سأل وهو يشير إلى ذلك الدولاب الصغير:

(ماذا يوجد بهذا الدولاب؟).

تنحنح (ينال) قائلًا:

(هذا الدولاب وضع به رسائل ومكاتبات السلطان محمد الفاتح). أخرج لفافة من قماشٍ أصفر اللون يفوح منه عبق القدم وهو يقول:

(هذه الرسالة والتي سُميت ب (رسالة إلى العالمين). قال وهو يفرد اللفافة بحرص أمام أعينهم أترون هذا الورق والمعروف ب (الورق العثماني (المصنع من الخشب، فكانوا يصنعوه من لحاء الخشب مع قطع القطن القديمة، وما يزال هناك من يصنع هذا الورق إلى الآن).

قال (نجيب) بحماس:

(هل لي بقراءة هذه الرسالة).

قال (ينال) في تحرج:

(معذرةً غير مسموح لغير الموظف المسئول أن يمسك بهذا الورق لأنه قديم ويخشى عليه من التلف، حتى أنك تراني

وأنا أمسك به بحرص).

قال (نجيب):

(لا بأس فلتقرؤه لنا، فلقد قتلتنا فضولًا يا رجل).

هنا تنحنح (ينال) وبدا وكأنه يستعد لاختبارًا ليس صعبا ولكنه هام، أخذ نفسًا عميقًا وهو يقول وقد ترك عيناه تنتقل بين سطور تلك الرسالة:

(بسم الله الرحمن الرحيم.... مُتيمنًا بذكرهِ القديم ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وبقدوة نبينا المرسل رحمة للعالمين محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم الكثيرة البركات، وبمؤازرة قدس أرواح حماية الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. أما بعد.... فإن التمسك بالمبادئ هو من أكبر أنواع الجهاد على وجه الأرض، هو أقوى من الجهاد ضد الفاسدين والدمويين من المسوخ من البشر.

لقد تعلمت من العلوم أنفعها كالفلك، والطب، والكيمياء، والخطط العسكرية وعلوم كثيرة تفتح لها العقل وتوسعت لها المدارك، أعانتني بفضل الله وكرمه على معاركي مع الأعداء

ومعاركي مع شياطين الإنس والجن، أنجزت وخوضت معاركَ كثيرة إلا أنني رغم ذلك مقصرٌ بائس، وأدعو الله في كل يوم تشرق فيه الشمس مبشرة مستبشرة، أن يغفر لي ويجبر تقصيري وخطأي.

ها أنا ذا أموت ولكني غير آسف، فإني تارك مِن بعدي، مَن يكمل ما انتهيتُ إليه، ولقد أوصيته أن يكون عادلًا صالحًا رحيمًا يبسط على الرعية حمايته دون تمييز، فإن هذا واجب الملوك على الأرض، وأنني غير آسفٍ إذا رحل خلفي إلى رحمة مولاه، فمن بعده يأتي خلفه بما تعلمه من الدين والعلوم يحافظ على إرث أجداده ومن بعده أحفاد أحفادنا لا يكلون أو يملون، إلى أن يأتي اليوم الذي يكون فيه رجالًا يحملون من أسمائهم نصيبًا من صفاتهم يحافظون على إرثنا أو يستردونه إذا سُلب.

وأني على يقين أن الأرض لن تخلوَ من الفرسان والنجباء من عباد الله الذين يدافعون عن الحق حتى ينقطع نحبهم وتصير كلماتهم نورٌ يسبح في سماء التاريخ، كما سبحت كلماتنا، فلا غرق لها ولا زوال.

فاعلم يامن تأتي من بعدي سواء إن كنت ملكًا أو وُلّيتَ لمنصب ما، إن كنتَ موجودًا في زمن تبدلت فيه الحقائق والأدوار وكنتَ مِمن يحتذون بالصالحين وأصحاب الرسالات

من العلماء، وانتقدوك الناس وحاربوك، فاعرف أنك على الدرب سائرٌ ولا تلتفت إلى كلام السفهاء؛ فإن الالتفات إليهم مضيعةٌ للوقت وأكبر خسران، وإن الحرب الحقيقة ليست معركةَ سيوف وخيول وإنما حرب سواعدَ وعقول).

لاحت على وجه (نجيب) أمارات الشرود، لقد تذكر وهو في المرحلة الإعدادية وكان يلقي خطبةً على زملائه الطلبة في الإذاعة المدرسية، إذ كان يقول فيها:

(بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخير من وطأت قدمُه الأرض، ومن أرسل رحمة للعالمين سيدنا محمد نبينا الكريم.

أما بعد، فنحن نؤمن ولا شك أنه لا تقدم إلا بالعلم، فلكي يعلو شأنك يجب أن يزيد علمك، فلا قائد أو عالم أو قاضٍ من غير علم، وقد تعلمنا من أجدادنا إنما بالعلم يسمو العقل وتتفتح المدارك.

وقد حرصوا كل الحرص على أن يورثونا الشغف لطلب العلم وتحصيله، كما حرصوا على أن نتحلى بصفات الفرسان ألا وهي الحق والتحلي بالقوة اللازمة للمحافظة عليه والعدل والرحمة والمساواة وغيرها بما ترحب به الأرض وتضاء.

كما شددوا أيضا على التمسك بالحق مهما انقلب الحال وزادت الأهوال، فإن التمسك بالحق يجعلك راسخًا بالأرض كالوتد فلا تقتلعك ريحُ الباطل مهما بلغت قوتها).

(سيد نجيب! سيد نجيب!)

عاد (نجيب) من شروده ليلتفت ببطء نحو (انجين) الذي كان ينادي عليه في استغراب، وقال:

(ماذا بك يا سيد (نجيب)؟! هل يوجد خطب ما؟!). قال (نجيب) وهو ينفض عنه ما تبقى من شرود:

(لا شيء). أتبع قائلًا:

(أظن أنني اكتفيت من المعاينة هنا أود أن تأخذنا في جولة في هذا القصر العظيم).

أشار (ينال) لهم باتباعه، وبعد أن غادروا هذه الشقة، التفت إليهم قائلا:

(رغم أنه تم ترميم هذه الشقة كاملةً، فقد أحرقت كلها دون أن تترك شيئًا من رائحة التاريخ، إلا أنني ما زلت أشعر بعبقه، وأشعر وكأن ساكنه مازال يعيش ويتجول بين أركانه). اقتربوا من غرفة لها باب لونه بنيّ غامق به دائرة بمنتصفه تقريبًا، فقال (ينال):

(هذه أهم غرفة بالقصر، تسمى غرفة الأمر، وفي هذه الغرفة كان السلطان يقابل فيها السفراء).

كانت تلك الغرفة منقوشة بكلمات عربية ومزخرفة بأشكال مختلفة.

أشار (ينال) بجانبه قائلا:

(هذا سبيل مياه رائع). ساروا حتى وصلوا إلى مبنى أبيض ملصقٍ يشبه البرج، فقال (ينال) متهللًا:

(هذا الديوان الهيمايوني وهذا البرج يسمى برج العدالة كان يصدر من ذلك الديوان فرمانات السلطان العثماني وكل ما يتعلق بشئون الحكم).

دلفوا إلى الداخل ليجدوا ما يشبه الأريكة ولكنها ملتصقة بالجدران، متخذة شكلًا دائريّ، وبالأعلى يوجد نافذة، قال (ينال) وهو يشير إلى هذه الأريكة، قائلا:

(هنا كان يجلس الصدر الأعظم والوزراء). قال وهو يشير إلى تلك النافذة:

(خلف تلك النافذة كان يجلس السلطان، والوزراء لا يعلمون هل يجلس ليراقب مدى سير الأمور بينهم أم لا؟!). رمق (ينال) (المحقق (نجيب) بنظرة ففهم من ملامح وجهه أنه

أخذ كفايته من الاستكشاف فأشار لهم بالخروج.

وخرجوا متجهين إلى خارج القصر وفي طريقهم مروا بغرف المطابخ والسلاملك والحرملك، وكان (ينال) يلقى القليل من المعلومات فكان يقول إن الحرملك هو القسم الخاص بنساء السلطان من زوجات وجوارٍ وكان غير مسموح لغير السلطان أن يدخل إلى قسم الحرملك، وكان أيضا غير مسموح لأيٍّ منهنَّ أن تخرج من قسم الحرملك لتزور السلطان في غرفته إلا بإذن (الكايا).

رفع يده وأتبع قائلا وهو يضحك:

(وقبل أن تسألوني من هي (الكايا (أقول لكم أنها رئيسة الخدم). وأشار لهم إلى غرفة وقال:

(هذه غرفة الأمانات المقدسة وهي تحوي الآثار الإسلامية المقدسة كبردة الرسول صلى الله عليه وسلم وسيفه!). لم تكن هذه المعلومة بغريبة على مسامع (نجيب) فقد قرأها في ذلك الكُتيِّب الذي يعد بمثابة الدليل لزيارة هذا القصر، ولكن راوده الشك في هذه المعلومة وقد أكد هذا الشك، أنه أثناء بحثه بشبكة الإنترنت سمع من يعلق على من يقولون هذه المعلومة بألا تصدقوهم ولا تكذبوهم!

ولما وصلوا إلى بوابة القصر تمهيدًا للخروج، التفت

(انجين) إلى (ينال) وقال في أدب:

(لقد أرهقناك معنا يا سيد ينال في هذه الجولة القصيرة). قال (ينال) في أسف:

(نعم جولة قصيرة وإن كنت أتمنى أن تزوروا أقسام القصر بأكملها ولكن على ما يبدو أن السيد (نجيب) غير مؤهل لذلك اليوم عامةً أنا في الخدمة).

قال (نجيب) موجهًا حديثه إلى (ينال)، وقد لاحت على وجهه أمارات الجدية:

(وأنا أحتاج إلى خدمتك في الحقيقة).

قطب (انجين) جبينه ولكنه لم ينبس بكلمة، بينما أتبع (نجيب) قائلًا دون أن ينتظر من (ينال) إجابة:

(بما أنك ضليع في تاريخ السالفين، أريد أن أعرف عما دار بين السلطان (محمد بن مراد) والمدعو (فلاد الثالث)؟).

تعجب كلٌ من نجيب وانجين من التصرف الذي بدر من (ينال) حيث تراجع إلى الخلف في ذهول ممزوج بانبهار، قائلا في تهلل:

(نعم... نعم....).

ثم استطرق قائلًا:

(ولكني لست من سيقوم بهذه المهمة وإنما هو المخضرم ولا أحدٌ غيره).

سأل (نجيب) في اندهاش:

(المخضرم؟!).

***

(6)

وصل (نجيب) إلى الفندق بعد أن ودع (انجين) وهو يندهش من أمر (ينال) الذي رفض أن يدلي بأيّ شيء عن (المخضرم (مكتفيا بإخباره أنه من أكبر المعمرين في تركيا، وابتسم حينما تذكر ما قاله (ينال) بأنه يدعو الله بأن يوفقه في إقناع ذلك المعمر بإن يقبل أن يروي له ما احتفظ به في بئر ذاكرته العميق من أسرار التاريخ.

فتح باب غرفته وهو يزفر عنه التفكير، وإذ به يصطدم بالنقيب (حسام) الذي جاء ليقف بجانبه فنظر له وقال له بعدم اكتراث: أرجو أن تكون استمتعت بالنوم في الفندق يا سيد (حسام).

قال (حسام) بشيء من الانفعال:

(ماذا تقصد بحديثك؟! إنني لأرفض هذا الأسلوب). دلف (نجيب) إلى غرفته والآخر يتبعه وغيظه يزداد مع طول صمته، فقال وقد قرب على الانفجار:

(أنت تعلم إرهاق السفر، فلم أشعر بجسدي الذي استسلم للراحة).

(إذن نومًا هنيئا).

هنا انفرط عقد الهدوء عند ذلك المساعد فقال:

(ماذا تظن نفسك؟! أتعتقد أنك محققٌ خارق الذكاء ولا تخطئ وتكرس حياتك للعمل؟! هل تريد أن تعرف ما يقولونه عنك زملاؤك في العمل).

لم يكن (نجيب) يولي له أيّ اهتمام بل كان يصبُّ جُلَّ تركيزه في تلك الحقيبة التي كان يعيد ترتيبها، حضرته فجأة تلك الرسالة التي كتبها السلطان العثماني للعالمين، وتشابها مع خطابه الذي كتبه وألقاه على زملائه بالمدرسة:

انْتُزِع من لحظة شروده القصيرة على صوت (حسام) وقد ازداد حدةً وهو يقول:

(تظن نفسك الأفضل؟! لا يا عزيزي أنت مجرد مسكين غريب الأطوار).

تقدم (نجيب) نحوه في خطوات بطيئة، ارتاب (حسام) من ردة فعله إلا أن الأول قام بإمساكه من ذراعه وسار به إلى خارج الغرفة وهو يقول له:

(عفوًا لقطع هذا الحديث الشيِّق ولكني في حاجة إلى الراحة والنوم).

أغلق باب الغرفة بوجهه بعد أن أصبح خارجها، فما كان منه

إلا أن صاح قائلا:

(أنت تعلم أنني لم أكن أرغب أن أقوم بهذه المهمة.. أنت من أجبرتني وأنا لا أحب العمل معك سواء داخل مصر أو خارجها).

لم يُعِر (نجيب) أيّ اهتمام لما خرج من فم مساعده من كلمات، وذهب إلى الثلاجة ليحضر منها زجاجة المياه، ثم اتجه إلى سريره ليستوي عليه بجسمه وليضع هذه الزجاجة بجانبه، وأخذ يقوم بعمل تدريبات التنفس من شهيق وزفير، ثم أراح رأسه على مخدعه المريح وأغلق النور، وسرعان ما أغمضت عيناه وغاص في نومٍ عميق.

***

رجل يرتدي ملابسَ حربية قديمة من العصور الوسطى يركض في فناء عريض يحيطه مدرجات قديمة كتلك المدرجات التي شيدها الرومان ليجلس بها الإمبراطور وأعوانه، ليشاهدوا المصارعين وهم يتبارون.

(ركز لا تتوتر)، رجلٌ غير واضح الملامح يصرخ بتلك الكلمات، وشبح رجل آخر يركض إليه ممسكًا بهراوة، وثالث يصيح به (انتبه!). فتح (نجيب) عينيه ليعلم أن ما رآه من مشاهد متفرقة لم يكن سوى حُلم.

***

جلس (نجيب) بذلك المطعم الذي تذوق فيه هذه القهوة بمذاقها الساحر، وعقله لا يتوقف أبدًا عن التفكير بهذه الأشباح التي بات يراها في الحقيقة وفي الحلم، وما حكاية هذه القصة الأخيرة، لقد رأى نفسه في فناء واسع وجنديًّا يرتدي ملابسَ العصور الوسطى يهاجمه، وأحدهم يصرخ عليه، لقد بدا في هذا الحلم وكأنه أحد المصارعين في العصر الروماني الذين كانوا يجلبونهم ليقدموا عرضًا يتمتع به الإمبراطور وحاشيته.

في تلك الأثناء جلس (حسام) على المقعد المجاور له وفي عينيه نظرة عتاب، انتبه له نجيب فقال له باقتضاب:

(كيف حالك؟).

(أعلم أنك ستكتب تقرير سيء عني ولكنني متقبل على كل حال). (ومَن قال لك أنني سأكتب تقريرًا من الأساس؟!).

قال (حسام) وبصوت يغمره الحماس:

(إذن فلننسَ ما حدث أمس). أشار(نجيب) بيده بإن لا يوجد شيء، ولكن إذا نطق لسانه بما طواه مكنون نفسه فكان سيقول له:

(إن الصراع الذي أواجهه أهم من صراعك التافه).

تجاوز كل ذلك وقال:

(هل تشرب شيئًا قبل أن نذهب إلى قسم التحقيقات؟).

قال (حسام) ضاحكًا:

(أود أن أجرب القهوة أيضا!).

في مكتب التحقيقات أخذ (انجين) يفرك ذقنه وهو يتأمل (نجيب) وقال:

(لا أريد ان أرهقك في جدال مجهد ولكن هل هناك طائل من سماعك درسًا في التاريخ؟! هل سيفيدنا في القضية أيها المحقق؟!).

(وأيُّ فائدة يا صديقي فقضيتنا ليس حلها في الوصول إلى المجرم. هنا الأمر مختلف، فالمجرم معروف، مجرم دموي معتوه يملك علمًا خارقًا بالنسبة لنا؛ لأننا لا نعرف طلاسمه، إنه يسبقنا بكثير، فلكي نلحق به لابد أن نعرف تاريخَه).

(تقول نلحق به؟! كأنك تقول إننا لن نتمكن من القبض عليه!).

(هذا أمرٌ وارد، ولكني لا أحب أن أسبق الأحداث أفضل أن أتقدم في القضية خطوةً بخطوة، وما علينا سوى المحاولة).

سأل (انجين) مستنكرًا:

(محاولة؟!).

(نعم.. فما الحياة إلا محاولات أتدري ما المشكلة الحقيقية يا زميلي العزيز؟).

أومأ له المحقق التركي بأن يكملَ حديثه وهو يملأ كوبًا من النسكافيه من خلال هذا الجهاز الذي وضع بجانب مكتبه

فاستأنف نجيب حديثه قائلا:

(المشكلة الحقيقة أننا لا نحاول، والمحاولة تبدأ من التفكير ونحن لا نفكر الحق أن العقل نعمةٌ ولكننا لا نشكر لله نعمته كما يجب). (ولمن توجه اتهامك بعدم التفكير يا سيد نجيب؟).

(أوجهه للناس كافة).

(كلامك خطير أنت تتهم الناس جزافًا دون أن يكون لكلامك دليل).

(لدي دليلٌ بالطبع يا سيدي، إذن فلتخبرني لماذا يسيطر عليك عدوك على مدار التاريخ إلا من خلال التفكير؟!).

قبل أن يعقب انجين على كلامه أردف قائلًا:

(ليس المطلوب من كل واحد منا سوى التفكير، أو إذا دمجنا كل ما قولته، فإن المطلوب هو محاولة التفكير).

قال (انجين):

(ولكن لا تنسَ أن الناس تمتلك شيئًا لا يملكه العدو).

(وما هو؟).

(الإيمان يا عزيزي، الإيمان الذي به يحيا الناس ويستيقظون كل يوم من نومهم ويسعون وراء رزقهم والذي لولاه ما احتملت العيشة). ندت عن (نجيب) إيماءة بعدم الاقتناع وقال:

(ليس بالإيمان فقط، لقد قال الدكتور (مصطفى محمود)ذات مرة وأنا أوافقه الرأي: (إذا نزل مؤمن وكافر إلى البحر فلا ينجو إلا من تعلم السباحة، فالله لا يحابي الجهلاء، فالمسلم الجاهل سيغرق والكافر المتعلم سينجو).

استطرد (نجيب) قائلا:

(وليس الجاهل هنا من لا يقرأ أو يكتب فقط وإنما الذي يأبى أن يُعمل عقله أيضًا).

قال (انجين) بشيء من الحنق:

(أنت تفكر بشيء دنيوي بحت).

(لا يا سيدي وإنما أحكم بمبدأ العدل).

طرق الباب ليبرز من خلفة الحارس وقال ل (انجين) بلغة تركية -لم يفهم منها (نجيب) سوى كلمة (ينال) فتوقع منها أن ينال يستأذن في الدخول- أومأ انجين إلى الحارس بما يفهم الموافقة، وبالفعل دخل (ينال) وحيّا مَن في الغرفة ثم ركز بصره إلى (نجيب) وقال:

(الرجل بانتظارنا). نظر (نجيب) إلى (حسام) في إشارة للاستعداد للخروج، وغادروا جميعهم ليستقلوا سيارةَ (انجين) الخاصة، متجهين إلى هذا المخضرم الذي لم تشرق شمس معرفته حتى الآن.

***

(7)

وقفت السيارة أمام بيت من البيوت الريفية، وهو المعروف باسم الجمالون، وبالبيت نافذتان تزينتا بالورود، تنبعث منها رائحة جميلة أما الجدران فقد شُيدت من الحجارة الغير منتظمة الشكل وأحيط هذا المنزل بالخضرة، أخذ (نجيب) يتنفس بعمق، لينعم بقدر كبير من أريج الأزهار الذي انتشر بالمكان، لم يستطع أن يمنع ذلك الانبهار الذي ارتسم على وجهه، قال (ينال) لهم بلغة جادة:

(انتظروا هنا). وطرق الباب ليفتح له رجل لم يستطيعوا أن يتبينوا منه سوى أنه نحيف الجسم، أفسح له الطريق ليدخل ثم أغلق الباب.

قال (حسام) وهو يتنهد:

(ننتظر حتى يأذن لنا الملك بالدخول).

قوبل تعليقه بنظرة امتعاض من كلا المحققين، فابتلع ريقه وصمت في تحرج واندمج صمته مع صمتهما في انتظار ما سيأتي من داخل ذلك البيت الريفي.

***

طرق (ينال) على باب غرفة قبل أن يأتيه صوتٌ مرهقٌ من

الداخل يقول:

(تفضل). دلف (ينال) ليحيي رجلًا امتلأ وجهه بتجاعيد تعكس عمرًا طويلًا يخبئ بين ثناياه أسرار التاريخ وحكمته، له ذقن بيضاء ناصعة صُففت بعناية، عيناه زرقاء حفرت إلى الداخل تعكس عامل العمر وعبقه، نحافة جسده تنبئ عن زهد في الطعام، فلا يأكل إلا الذي يبقيه حيًّا.

قال (ينال) في احترام وإجلال:

(أعتذر إن كنتُ سببتُ لك إزعاجًا يا سيدي ولكننا جئنا لنستقي من خبرتك). قال:

(ماذا تريد يا ولد؟! لماذا أتيت إليَّ؟!).

(معي محققٌ من مكتب التحقيقات يدعى (آنجين) ومحققٌ مصريٌّ يدعى (نجيب) والأخير في حاجة إلى مرجعيتك التاريخية). صاح الرجل مقاومًا صوته المجهد:

(ليس بي جهدٌ لهذا ماذا جرى لهؤلاء الناس؟! ألا يريدون أن يجهدوا أنفسهم في البحث وقراءة الكتب فيمتصون عقلي المسكين الذي يحتضر؟!).

قال (ينال) في رفق:

(يا جدي رفقًا بنفسك هذا المحقق المصري أظنه جديرًا

بالاهتمام، أرجوك أن تراه قبل أن تفصل في قرار مساعدته).

نظر العجوز إليه وتنهد في فراغ صبر، وأشار له بالسماح لهم بالدخول، وبعد فترة وجيزة دخل المحققان وحسام الذي كان يتلفت حوله في لا مبالاة، بينما قلب نجيب نظره في المكان باهتمام وبعين فاحصة ماحصة، ليجد ذلك الأثاث البسيط وعلى بساطته إلا أنه فخيم وصفف وكأنه صنع خصيصا ليضع بهذا البيت ورأى ذلك الإناء الذي وضع بها كمية من الورود مثل التي زرعت خارج البيت، إلى أن استقرتا عيناه على ذلك العجوز الذي كان ينظر إليه بعينيه المجهدتان في ذهول، فمال (ينال) إليه وقال:

(أرأيت، هل انتابك ذات الشعور الذي انتابني؟!).

أشار العجوز إلى (نجيب) بالاقتراب، فاقترب الأخير بخطوات واثقة حتى أصبح أمامه مباشرة، أشار له العجوز مرةً أخرى بأن يميل إليه بوجهه؛ ليتحسس قسماته بيدين مجعدتين بارزتي العروق، على جبهته العريضة، وعلى عيناه وأنفه وفمه، فشهق في فزع ثم أشار إلى نفسه بأيدٍ مرتعشة وقال في إجلال ملحوظ:

(أنا العم أركان ماذا تريد أن أروي لك يا سيدي؟!).

قال (نجيب) متحرجا:

(الأمر بسيط أحتاج أن أعرف تاريخ صراع السلطان (محمد الفاتح) والأمير (فلاد الثالث) والمعروف ب (دراكولا). استمرت أمارات الاندهاش على وجه العجوز (أركان) فلُجِّم لسانُه، ووقع أسيرَ الصمت، فتدخل (ينال) قائلا:

(أرى أن جدي لم يعرف عن نفسه بطريقة وافية). استرد ريقه ثم أتبع قائلا:

(هذا العم (أركانن) من أكبر المعمرين في اسطنبول كان أستاذًا للتاريخ يأتيه الناس من كل صوب وحدب؛ ليعرفوا ما دسَّ التاريخ بجعبته من حقائق وحقًا لقد حمل من اسمه معناه فهو شريفٌ أمين).

التفت العجوز (أركان) إلى (ينال) وقال:

(هل كنت طالبًا عندي؟! نعم أتذكرك أنت ذلك المشاغب الذي كنت أطرده دائمًا من الفصل).

ضحك (ينال) في إحراج وقال موجها حديثه لهم:

(أنا لم أكن طالبًا عنده قط أعذروه فكبُرتْ سِنُه وهذا جعله يخلط الأمور ببعضها!). والتفت إلى (نجيب) الذي وضحت عليه أمارات القلق:

(لا تقلق فيما يتعلق بالتاريخ فعقله ذري). قال العم (أركان) متلجلجًا:

(الصراع بين السلطان (الفاتح) و (دِرَاكولا) صراع كُتب على جبين التاريخ ولن يُمحى أبدًا، ولكن يجب أن أخبرك عن الرحم التي ولد منها هذا الصراع). قال (نجيب) بأدب:

(يبدوا أنها حكايةٌ طويلةٌ يا جدي؟!).

(بل حكاية تحتاج إلى الإمعان في التفكير).

نادى على خادمه فجاء ذلك النحيف الذي فتح الباب ل (آنجين) في بادئ الأمر فقال له:

(حضر الغرفة المقابلة لصديقنا واجعلها نظيفة). هم (نجيب) بالكلام ولكن قاطعه العجوز قائلا:

(ليس لدي غرفٌ أخرى، هي واحدة فقط للذي يريد أن يعرف التاريخ ويحفظه).

سكت بُرهةً يسيرة أغمض فيها عينيه، ثم قال:

(لِمَ أنتم واقفون؟! اجلسوا لتكونوا مستعدين لاستيعاب ما أرويه لكم).

مال (حسام) وقال له بصوت خفيض:

(سأخرج لأدخن سيجارة).

لم يعلق (نجيب) عليه إلا أن بالعجوز صاح به قائلا:

(لا تدخين ببيتي أتريد أن تقتل زرعي يا رجل؟).

فقال (نجيب) وهو يكتم ضحكته:

(أجلس ولا تلوث البيئة).

هزَّ (أركان) رأسه في عدم رضا وزفر لينفخ عنه ما تبقى من ضيقٍ؛ ليتأهّب لحكايته الذي ستبدأ بعد قليل.

***

بدايةً دراكولا اسمه (فلاد الثالث) والملقب المخوزق نعم يا أولاد المخوزق، ردد (حسام) وهو يكتم ضحكته:

(أولادا). فالتفت (نجيب) واضعًا سبابته على فمه في إشارة للصمت والاستماع لما يقوله العم (أركان) الذي كان يقول شارحا:

(سُمّي المخوزق؛ لأنه كان يقتل بوضع ضحاياه على الخازوق!).

سكت ليتمالك نفسه ثم تماسك وقال:

(إنه مريضٌ نفسيّ ودمويّ حليف الشيطان في القتل

وسفك الدماء وقبل أن نتعمق في ذكر هذا الوحش البشريّ أحدثكم عن والده والذي هو رأس الأفعى). سأل (نجيب) باهتمام:

(رأس الأفعى أهو لقبه تاريخيًا؟).

(لا بل أنا من لقبته بهذا اللقب؛ لأنه البوابة التي خرجت منها ألسنة الشر).

(إذن أكمل حديثك سامحني على المقاطعة).

فقال العم (أركان):

(اسألني أنّى شئت يا بني وفقني الله لإفادتك). سأل (حسام):

(لي سؤال يا سيدي).

قاطعه (أركان) في عصبية قائلا: (لا أريد المقاطعة).

قال (حسام) بتأتأةٍ: (أنا... أنا.... آسف يا جدي).

كتم (نجيب) ضحكته ثم قال بأدب:

(أرجو المعذرة فلتكمل وكلنا آذانٌ مُصغية).

أكمل (أركان) حديثه قائلا:

(والد الشيطان (دراكولا) هو (فلاد الثاني) الذي انضم إلى

تنظيم سريّ أنشأه الإمبراطور الروماني (زيغموند) والمسمى ب (جماعة التنين) والتي تعني باللاتينية (دراكولا) ومن هنا يأتي اسمه المقترن به.

سكت برهة يتأمل من حوله وخاصةً (نجيب) الذي أمعن النظر إليه؛ ليستشف انطباعه إلا أن وجهه كان صافيا خاليا من أيّ ملامحٍ تدل على أن ثمة شيء.

أكمل حديثه قائلا:

(سنة 1436 تُوّج (فلاد الثاني) ملكًا على فلاجيا إلا أنه بعد فترة طويلة تآمر عليه ملك المجر وأعوانه وانقلبوا عليه؛ ليخلعوه من مكانه، فما كان منه إلا أنه لجأ إلى الأسد الهصور وهو (الدولة العثمانية) فارتحل إلى (أدرنة) عاصمة الدولة العثمانية فى ذلك الوقت مصطحبًا ولديه فلاد ورادو والأول هو موضوع ومحور حكايتنا ليتقابل مع السلطان (مراد الثاني) وهو سادس سلاطين الدولة العثمانية ووالد السلطان (محمد بن مراد) والملقب ب (محمد الفاتح) ليعقد معه اتفاقا، ومن هنا تبدأ قصتنا!).

***

(8)

في أدرنة عاصمة الدولة العثمانية في قصر السلطان (مراد الثاني). وقف (فلاد الثاني (مع السلطان (مراد الثاني (وقد بدا على الأول الأسف وهو يطل على فناء واسع وهو يقول:

(لقد وافقت أن تكون «فلاجيا» - بعد أن أعود على عرشها بمساعدتكم - تحت راية دولتكم وأني ملتزمٌ بدفع الجزية).

أومأ السلطان (مراد) برأسه مبتسمًا ابتسامة الواثق وأشار له بالسير على الممر المؤدي إلى الغرفة المعدة لاجتماع السلطان بالملوك، وجلس السلطان (مراد) وأشار إلى الملك المنقلب الحزين بالجلوس والذي استطرد قائلا:

(ولكن هناك شرطٌ مقابل شرطٍ إذا وافقتني عليه، فإنما أحييتني ورُدَّت إليّ روحيّ المتعبة).

لما أشار السلطان إليه بالاستطراد قال في انكسار:

(أنت تعلم يا سيدي أن العروش لا تُستدام لأحد فهي دومًا ما تكون على نيران غاضبة يغذيها الحقد والوحشية والرغبة في السلب والاقتلاع، وإني وإن عدت غدًا إلى العرش فلا أضمن أن أبقى لبعد غدٍ وإني لأخشى على ولداي من الضباع الذين يرغبون في أكل لحمي حيًا، دون أن تأخذهم رحمة أو شفقة، لذا أهديت بقلب الأب المحطم الذي لا يملك من الدنيا

سوى ولديه، أن ليس لهما مأمن سوى عرينكم).

قال السلطان (مراد) مهدئًا إياه:

(اطمئن على ولديك فهما في مأمن فنحن لا نغلق بابًا أمام أيّ مستجير، هما من الآن ولداي فهم في قصرنا سيترعرعان ومن طعامنا وشرابنا سينعمان ومن علومنا سينهلان، عليك فقط أن تحافظ على عهدك معنا).

نهض السلطان (مراد) ونهض معه الآخر، وقال الأول وهو يسير تمهيدًا لإيصاله إلى ذلك الخادم الذي وقف في سكون واحترام:

(ستستريح في مضايفنا بعض الأيام، حتى أجهز لك جيشًا تكون أنت على رأسه، لتقتلع بنفسك ذلك الضبع ولتستعيد بساعدك عرشك ومجدك). قالها وأشار للخادم أن يصطحبه لمضيفته.

أما هو فقد عاد مرةً أخرى إلى تلك الغرفة التي كان يجلس بها مع الملك (فلاد) شرد وقد اعتلى همَّ التفكير قسمات وجهه، قطع شروده طرق الباب فسأل:

(من الطارق؟).

دخل الحارس يقول له:

(الشيخ- آق سيف الدين - يستأذن في الدخول يا سيدي). فقال السلطان (مراد) بحماس كمن وجد ضالته:

(أدخله فورًا). دخل الشيخ (آق) وهو شيخ قد شيّخه الزمن، قد منحته تجاعيد الوجه وقارَ الزمن وحكمته وذقنه البيضاء الصافية منحته هيبةً فوق الهيبة التي تشع من وجهه رغم قصر قامته ونحافة جسمه، أقبل السلطان عليه بتواضع ليصافحه وأجلسه في احترام، وجلس هو بالمقابل، وبعد أن كان متحمسًا انطفأ حماسه فجأة، حتى لاحظ ذلك الشيخ (آق) فسأل:

(ما بالُ السلطانُ مهمومًا؟).

(يساورني القلق على ولدي (محمد)، فإني لأشعر أن مصاعبَ جِسام تنتظره). تمتم قائلا هو ينظر من خلال نافذة صغيرة:

(الله وحده يعلم عما إذا كانت هناك مؤامرة تحاك الآن ونحن نتحدث أم أن الحياة راكدةٌ ركودَ الذئب المترقب).

قام الشيخ (آق) واقترب من السلطان ليربت على كتفه، وهو يحاول أن يطفئ نيران قلقه:

(هون عليك يا سيدي، إننا نعمل على إعداده لهذه الصعاب، هو لها بإذن الله).

(ولكنه مازال صغيرًا على ما يتعلمه، إنه لأمرٌ قاسٍ، على صبيٍّ يبلغ من العُمُر أربعة عشر عاما).

(ولكن هذا الصبيّ ليس كأي صبي يا مولاي، وأنت تعرف ما ينتظره، وإني على أملٍ قوي أن حديث سيدنا النبي (ص) يقصده ولا أحدًا غيره والذي يقول فيه صلى الله عليه وسلم: لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأميرُ أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش (انفرجت أسارير السلطان بعد سماعه كلمات الشيخ (آق) وخاصة أنه يعلم أنه يعد من العلماء الأجلاء ولقد ورث من أبيه وأجداده احترام العلماء.

إلا أنه عادت إليه أمارات الجدية مرةً أخرى وقال:

(إلا أنني لأجد أنه لا يولي لبعض العلوم نفس اهتمامه بالعلوم القتالية، وأنت تعلم ما عليّ من عبء الحكم، ومواجهة وحوش ضارية متربصة على الدوام تجعلني مشغولا عنه، فسأترك لك هذا الأمر). (اتركه لي يا مولاي ولا تقلق).

دخل أحد الحراس وحيّا السلطان في إجلالٍ وقال له وهو مطأطئ الرأس:

(الجميع منتظر في مدرسة الأمراء لمشاهدة التدريب القتالي في الفناء الكبير يا مولاي). أشار السلطان إلى الشيخ

(آق) يدعوه للحضور، فامتثل الآخر في طاعة واحترام وسارا الاثنان خلف الحارس ودخلوا من خلال باب خشبي، صنع من الخشب المتين إلى مدرج كبير ودائري جلس فيه الوزراء وكبار الدولة والذين ما إن رأوا السلطان حتى وقفوا إجلالًا وإكبارًا، حيّاهم السلطان وسار حتى بلغ مقعده وأشار إلى الوزير الذي كان يجلس بجانبه بأن ينهض للشيخ (آق) ليجلس الأخير بجانبه بينما جلس الوزير في مقعد آخر.

ارتسمت على وجه السلطان (مراد) ابتسامة خفي بها قلقه، الذي شعر به الشيخ (آق) ولكنه لزم الصمت.

جاء منادٍ ونادى بصوت عالٍ يقول:

(والآن مواجهة بين الأمير الشجاع (محمد بن سلطاننا العظيم مراد الثاني) وبين المقاتل العملاق (إينار) بهراوته المعروفة).

هنا انتفض السلطان (مراد) وقال بصوت خفيض ولكنه مليء بالغضب:

(لِمَ إينار بالذات؟!). ربت الشيخ (آق) على يد السلطان قائلًا:

(رفقًا بنفسك يامولاي، سيحسن ولدنا صنعًا، أنا واثق من ذلك).

ظهر صبيٌّ أشقرٌ متوسطُ الطول عيناه حادتان تبرزان من تلك الخوذة التي صنعت شبيهة بخوذة السلطان التي يرتديها في الغزوات، ورداءً خفيفًا يمنحه حريةً الحركة والكر والفر، أمسك درعه وأشهر سيفه في ثبات دون أن يهتز له جفن، وفجأة فُتحت بوابةٌ أمامه ليخرج منها صوتُ صياح يشبه زئير الأسد تبعه ظهور وحش بشري عملاق يرتدي خوذةً ضخمةً يدوية الصنع ويمسك بيده اليمنى العريضة هراوة طويلةً وسميكة ودرعًا كبيرًا بيده اليسرى، ركض بكل سرعته نحو الصبي الواثق، ورجل يبدو عليه أنه مدرب ذلك الصبي يصرخ له:

(محمد ركز لا تتوتر).

قفز (العملاق) في الهواء تمهيدًا لتسديد ضربةً بهراوته، فلم يتمالك السلطان نفسه فصاح:

(انتبه!).

***

حاول العجوز (أركان) أن يلتقط أنفاسه بينما لاحت على وجه كلٍ من (آنجين) و (ينال) مزيجًا من الحماس واللهفة، بينما سيطر الاندهاش على (نجيب) أكثر من حماسه؛ لمعرفة ماذا فعل (الفاتح) مع (ذي الهراوة)، لاحظ ذلك كلٌّ

من العجوز و(ينال) اللذان أخذا ينظران إلى بعضهما نظرة مفهومة، ولا حديث هنا عن (حسام) فهو غير مكترث كعادته.

قال (آنجين) بلهفة:

(رغم أنني من أبناء هذه الدولة إلا أن هذه التفاصيل لا أعلمها، ولا أظن أنك على علم بها يا سيد ينال أليس كذلك؟).

قال (ينال):

(بلى فرغم أنني قرأت كثيرًا في التاريخ بحكم عملي إلا أن فوق كل ذي علم عليم).

سأل (آنجين) ولم يفارقه تشوقه:

(فلتكمل لنا إذن يا جدي فلقد قتلتنا شوقًا). أشاح العجوز بيده في ضيق وقال:

(أنا متعب الآن فلنستريح جميعًا ولنكمل غدا إذا كان في الجسد روحٌ). غادر كلٌ من (حسام) و (آنجين) و(ينال) بينما اصطحب الخادم (نجيب) إلى غرفته وذلك بعد أن أوصى (أركان) الخادم أن يتأكد أن الغرفة لا ينقصها شيء، وأن يضع نفسه تحت إمرته إن دعاه في أيِّ وقت، سهَّل ذلك قرب غرفة الخادم من الغرفة التي سيكون بها (نجيب)، شكر الأخير الخادم بعد أن أوصله إلى عتبة الغرفة، وحيَّاه تحيةً

لطيفة، وما إن أدلف إلى الغرفة حتى تملكه نفسُ الاندهاش بل أشد وبات يسأل نفسه بصوت مسموع: (كيف يكون التشابه لهذا الحد؟!).

إن ما وصفه الحكيم المخضرم من فناء ومدرج والمقاتل الذي يمسك بهراوة يتشابه لما رآه في حلمه غير اختفاء بعض التفاصيل التي لم يتبينها وهو في ذلك العالم البرزخي، والأدهى من ذلك أنه رأى نفسه في مكان (الفاتح) وهناك من يصرخ إليه بالتركيز، وآخر يصرخ إليه بالانتباه، ماذا يكون ذلك؟!

هنا تذكر مواجهته مع هؤلاء الرجال الأربع، عندما خُيِّلَ إليه أن أحدهم يوجه إليه سيفًا ويصده هو بدرع، هناك حلقة مفقودة لا يعرفها ولا يجدها، وجد نفسه أنه يجهد عقله في التفكير دون أن يمسك بيده خيطًا واضحًا يسير وراءه لفك طلاسم الأمر.

ألقى نظرة إلى السرير فوجده رغم بساطته إلا أنه يبعث الراحة للناظر إليه كأنك تستعيد روحك، لاحظ وجود فواحة فوق مقدمة السرير، تفوح منها رائحة عود، وقد زين هذا السرير بالزهور المختلفة الألوان على الجانبين، انتشى بسعادة غريبة رغم ما يشغل عقله من التفكير العميق المجهد، فقرر أن يستمتع بالنوم في هذا الجو وليرجئ

التفكير لوقت آخر، وأغمض عينيه؛ لتسكن أعصابه المتوترة ولتهدأ نفسه المتأججة.

استيقظ فجأة دون مبرر، ليجد جملة تسبح في الهواء باللون الأحمر وتتساقط منها قطرات حمراء اللون وكأنها كُتبت بالدماء ألا وهي: (الفهم هو أول طريق المتاعب!).

(9)

(الفهم هو أول طريق المتاعب!).

من أقسى الأشياء أن تتردد جملة غامضة برأسك دون أن تجد لها مبرر، ولكن المحقق (نجيب) تدرب بشكل جيد أن يتناسها مؤقتاً، طرق الباب في صوت خفيض فقال:

(تفضل).

دخل الخادم ليخبره أن العم (أركان) بانتظاره بالخارج ليتناول طعام الإفطار، فأومأ له بالموافقة.

وفي تلك الأثناء، كان المخضرم يجلس على شلتته الدائرية المريحة حول منضدة دائرية الشكل صغيرة، وضعت بها أطباق بها مختلف الأطعمة، وطبق به بسكويت وصينية وضعت بها أباريق بها مختلف المشروبات، بعد فترة وجيزة جاء نجيب ليلقي التحية عليه فرد عليه التحية ثم قال له:

(تربع يا ولدي فإن في التربيعة ليونةً للعظام وخاصةً للذين في عمري). أتبع قائلا له مشجعا:

(اجلس.. اجلس ولا تتردد).

جلس (نجيب) متربعا، كما يجلس العجوز وقد استمد منه حماسه فقال له الأخير:

(أمامك أصنافٌ عديدة، كل ما تشتهي نفسك وتطيب).
فقال (نجيب) في تحرج:

(معذرةً ولكني لا أتناول في وجبة الإفطار إلا بعضَ البسكويت مع النسكافيه).

(الأمر بسيط يا ولدي).

أشار له إلى طبق وإناء على مرمى بصره قائلا:

(هذا وذاك).

فمد (نجيب) جزعه ليلتقطهما وصبَّ من الإناء إلى كوب فارغ بجواره، وتناول قطعةً صغيرةً من البسكويت، فلقي استحسانًا كبيرًا وقال معلقًا:

(طعمه شهيّ يا جدي ما أطيبَه!).

اقترب العجوز منه وربت على ركبته قائلا:

(إن الروحَ تعود أحيانًا لتؤدي مهمةً ما!).

كاد أن يرتشف المحقق رشفته الأولى من مشروبه المفضل لولا هذه الجملة التي جُلجلت بمسامعه، فأنزل الكوبَ من فمه ونظر إليه باندهاش، أمسك الآخر بكتفه يشد من أزره قائلا:

(إذا عرفت من أنت، فستعرف عدوك، وإن عرفت فهمت وإن فهمت فتجلَّد!).

وقبل أن ينطق (نجيب) بأيَّةِ كلمة، جاء الخادم ليخبر مخدومه بقدوم كلٍ من آنجين و ينال فأشار الأخير بالسماح لهما بالدخول.

دخلوا عليهما وألقَوا عليهما التحية وقال (آنجين) في حماسة:

(مشتاق لسماع بقية القصة).

فعقب (ينال) بابتسامة صافيه قائلا:

(ليس بأكثر مني وإن كنتُ أشك أن محققنا الهمام تسرب له جزء من القصة). ضحك (نجيب) قائلا:

(بل كنت أستمتع بأكل البسكويت مع النسكافيه).

ضحك الجميع وصمتوا فجأة والأعين مسلطة على العجوز ولكن قبل أن يكمل روايته سأله (نجيب):

(اعذرني يا جدي ولكني أريد أن أعرف شيئًا، الجميع يعرف أن السلطان (محمد الفاتح) فتح القسطنطينية -كيف لنا أن نتأكد أن الحديث النبوي يقصده هو بالذات؟!).

(هناك أقاويل يا ولدي أنه ليس المقصود بالحديث، وهناك

من يقول أن فتح القسطنطينية الصحيح سيكون ما قبل يوم القيامة).

قال (آنجين) كمن تذكر شيئا:

(أين السيد حسام أراه لم يحضر بعد).

أشار (نجيب) إشارة بعدم الاكتراث، ففهم (انجين) وسكت، وسكت معه الجميع ولم ينطق أيٌّ منهم بكلمة ومرةً اخرى تسلطت أعينهم على الراوي الخبير الذي تنهد استعدادًا للسفر إلى الوراء إلى زمن السالفين.

***

في الفناء الكبير بمدرسة الأمراء

قفز (العملاق) في الهواء تمهيدًا لتسديد ضربة بالهراوة، فلم يتمالك السلطان نفسه فصاح:

(انتبه!).

التفت الأمير (محمد) إلى أبيه لما سمع صياحه، فتلقى ضربة قاسية على درعه فكاد أن يسقط من يده فصاح به المقاتل (إينار).

(ركز يا أمير فإن أمهلتك أنا فلن يمهلك العدو).

شعر الأمير بغضب مزدوج من أبيه ومن ذلك المقاتل فأحكم قبضتيه على سيفه ودرعه، ثم وجّه ضربة بسيفه تلقاها الآخر على درعه، فقال بلكنة مستهزئة:

(أهذا كل ما لديك؟! عليك أن تقوي ضربتك يا مولاي). قال الأمير وهو يثب عليه ليسدد ضربة له:

(لو تكفّ عن الثرثرة لكان أنفع لك أيها المزعج).

جاءت ضربة الأمير على الدرع ضعيفة كالعادة، ولا تخفى عن الرائي، في المقابل انهال (العملاقُ) بالهراوة يسدد الضربات الواحدة تلو الأخرى، فكانت تهوي على درع الأمير محدثة قرقعةً عالية دوى صداها بالمكان كله، فيتزلزل لها قلب السلطان الذي كان يتصارع بداخله شخصان، الأول ذلك القائد القاسي قسوةَ الجبال المتأهب دومًا للقاء الضواري من البشر، والثاني هو الأب المشفق الذي يعتصر قلبه، لما يرى ما يكابد ابنه من مواجهة مبكرة يصلح لها مَن هو أكبر منه عمرًا وأقوى بنية.

تنازعا الشخصان، الأول يريد أن يلوح في الأفق بوجهه الجامد عديم الملامح ليقوى ساعد ابنه وليهابهما الملتفون حولهما من رجال الدولة المخلصين منهم والحاقدين، والثاني يريد أن يصيحُ كأيٍّ أبٍ يخشى على ابنه ولتذهب السلطنة والهيبة مع أمواج البحر الغاضبة.

في النهاية ورغم أنه أذعن لرجله الأول، واعتصر قلبه اعتصارًا، وهو يشاهد صبيه مازال يصد الضربات التي لو نزلت على جبلٍ لهدته ببسالة وجلد وكان ذلك الشيء الوحيد الذي يعطي لقلبه بصيصًا من الاحتمال.

قال (إينار) وهو لايزال ينهال بهراوته يعرف كيف يوجهه بإتقان الوحش الذي حفظ أساليب الصيد:

(بالقوة تكتمل الرجولة). (بعضُ المعارك لا تحتاج للقوة). (وكيف ذلك؟!).

(هكذا). قالها وهو يقوم بقفزةٍ رشيقة ثم أشار بسيفه على جسمه ما بين السيف والدرع، حيث إن القاعدة في هذه المبارزة أن من يلمس بسيفه أيَّ جزء من الجسد يكون هو الفائز.

تفاجأ الأمير (محمد) أنه يرتدي واقيًا يغطي بطنه وظهره، فقال (إينار) متصنعًا الأسف:

(حاول مرة أخرى يا أمير).

ابتسم الأمير وقد أسرَّ شيئا في نفسه بينما تابع الآخر قائلا:

(أقول لك شيئا؟! ولكن عِدني أن يكونَ سرًا بيننا).

(أعدك أيها الضخم تكلَّم).

(لولا أنني مأمورٌ بالالتزام بقواعد اللعبة وهي كما تعرف خالية من بند القتل - هذا بجانب أنك ابن السلطان العظيم - لكنت قتلتك يا مولاي).

لم يرد الأمير عليه بل أخذ يدور حوله في رشاقة والسيف والهراوة كلاهما يصطك والهواء يحمل صداهما إلى السلطان وهو لا يزال يكابد العناء في كبت مشاعره.

تابع (إينار) كلامه قائلًا:

(أتعرف لِمَ أرغب في قتلك؟).

ولما لم يرد الأمير، تابع مجيبًا على نفسه:

(لأنك لا تستحق أن تكون سلطانًا أيها الأمير الصبي، دومًا ما تذكرني بالسمك فلحمه طريّ مثلك تماما).

ابتسم الأمير ابتسامة الواثق:

(لا أستغرب حقدك الذي نضخ إلى السطح).

قالها وقفز عاليًا وبقدمه اليمنى ضرب درعه فأبعد يده اليسرى وقبل أن يهبط على الأرض سدد ضربةً بسيفه بدقة أطاحت بخوذته، ولما هبط كان مشيرا بسيفه إلى رأسه العارية، فسادت لحظة من الصمت ثم أعقبها تصفيقٌ، هنا صاح المنادي قائلًا:

(وبحركة بهلوانية ذكية يفوز الأمير (محمد خان) على المقاتل الشرس إينار).

كان الأمير لا يزال مشيرًا بسيفه إلى رأس العملاق ومال عليه قائلا:

(من يستحق السلطنة الآن؟!).

***

كان الأمير (محمد) منتشيًا في تلك الليلة، فلقد انتصر على (إينار) اليوم وانتصر لنظريته التي تقول: (ليس بالقوة وحدها تنتصر) وإنما العقل، فقط العقل الذي بقليل من التدريب تستطيع أن تتحكم في قواك، لتحسم بها أيّ معركة.

ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة وهو يصعد إلى غرفته، فوقع نظره على تلك الغرفة ذات الباب الخشبي الفاخر، وبأذنيه صوت أبيه - قادم إليه من الذاكرة- يقول له بنبرة تحذيرية: (إياك أن تقرب هذه الغرفة أو تفكر لحظة أن تفتحها!).

***

استأذن رجلٌ بدا من ملامحه التي تبوح بالوقار أنه صاحب عِلم في الدخول إلى السلطان فأذن له فدخل ولما أصبح بين

يديه حيَّاه في إجلالٍ، ولما أُذن له بالكلام قال بأدب:

(أخشى يا مولاي أن تظنَّ أنني أتٍ لأشكو مولاي، وإنما أشكو لكم ما ألمَّ بضميري من ألمٍ أصبح يَجلد أوصالي لدرجة لم أعد أتحملها!). قال السلطان بانزعاج:

(تكلم يا مُعلم ولك الأمان فأنت عالمٌ جليل في علم الفلك، ووالله إنَّ إجلال العلماء لأعلى عندي من إجلال السلاطين على مر العصور).

قال العالم وقد تحول تحفزه إلى قنوط:

(إن ابنكم الأمير (محمد) عظم الله قدره ورفع شأنه وإن كنتُ لا أنكر عليه ذكاءه الحاد وسرعة فهمه اللافتة للنظر إلا أنه لا ينتظم في حضور مجلس العلم، وأنت تعلم يا سيدي أنه لا مُلك لسلطان إلا أن يكون ذا علم في مجالات عدة، أهمها علم الفلك!). قال السلطان وقد تحول انزعاجه إلى ضيق وغضب:

(فهمت الآن وأعدك ستجده إن شاء الله من المواظبين). أومأ العالم برأسه في احترام، واستأذن في المغادرة بينما أشار السلطان إلى أحد الحراس وأمره بإحضار الشيخ (آق) في الحال!

***

طُرق باب غرفة الأمير (محمد) قبل أن يفتح ليجد أمامه الشيخ (آق) وقد خلا وجهه من أيّ تعبير، لاحظ ذلك الأمير، فسأل في ارتياب:

(ماذا هناك يا شيخ، هل حدث شيء؟!). قال الشيخ (آق):

(جئت وبأمر من السلطان).

أبرز عصا طويلة رفيعة وقال:

(ومعي عصاتي للتأديب والتذكير).

تراجع الأمير (محمد) في ذهول بينما أدلف الشيخ وأغلق الباب خلفه في الوقت الذي ظهر فيه السلطان بعد أن كان متواريًا خلف الجدران بحيث لا يراه ابنه، اقترب من الغرفة فسمع صوتَ العصا وهي تهوي على الجسد يصحبها صوت تأوّهات عالية، فينخلع لها قلبُ السلطان، ومع كل ضربة كان يسمع صوتَ الشيخ يقول:

(لا تهمل يا ولد..... العلم يا ولدي....). والولد يصيح من الألم:

(فهمت يا شيخ... عقلت يا شيخ). كان لسان حال السلطان يقول له:

(إنك والله لتؤلمني أنا وليس هو). تراجع للخلف ليسند

راحتي يديه على منضدة بجواره، وقال بصوت متهدج وقد زرفت دمعة من عينيه رغما عنه:

(فلتغفر لي يا لله).

***

الصبي يرتعش ويبكي في صمت، ووالده ينظر إليه في إشفاق ولأول مرة يظهر إشفاقه ولا يخفيه، اقترب منه وأخذ يفرك ذراعيه بيديه لتهدئته ورفع وجهه إليه:

(لا تحزن من الشيخ (آق) يا ولدي فلقد أراد تعليمك فهو ملهمك علمك القرآن والكيمياء والرياضة والفلك، أعطاك فيها المبادئ الأساسية إلى أن انتقلت لمعلمك الحالي يعلمك ما ظهر من علم الفلك وما بطن).

قال الأمير (محمد) وهو لا يزال يرتعش من أثر البكاء:

(وهل يكون التعليم بالألم والإهانة يا أبي؟!).

ربَّت الوالد على كتفه وقال له:

(آلمك لا بقصد الإهانة، وإنما آلمك بذلك الألم الذي ستشعر به وأنت تحكم دولة سيحكي عن عملقتها التاريخ، أخبرك عن تلك الأنياب التي ستنغرس في لحمك إن قصرتَ أو غفلت).

(ألم تكن أنت يا أبي الأحق بتذكيري منه؟!).

(بلى يا بني ولكن حينها ستغلبني عاطفتي وإن غلبتني أفسدتك، هو الأجدر فهو مُعلم يرى الدنيا بعين خبير).

(10)

أشرقت شمسُ يوم جديد على قصر الحكم، وكانت ثمة حركة نشيطة ولكنها مكثفة، كمن يستعد لمناسبة، احتشد عددٌ من الحراس أمام بوابة القصر التي فتحت على مصراعيها، ليبرز منها السلطان (مراد الثاني (وعلى وجهه ابتسامة مشرقة، تلفت حوله وقال وهو يحدث رجاله: (أين ابننا؟) فقال أحدهم:

(سيأتي يا سيدي بعد قليل وبرفقته الأخوان فلاد ورادو).

أومأ برأسه متفهمًا ونظر إلى كبير حراسه ليسأله:

(أدوات الصيد جاهزة؟).

أومأ رجله الأمين بالإيجاب وتراجع خطوتين للخلف توقيرًا، لقدوم الأمير (محمد) وهو يمتطي خيله الأدهم وبجواره بمسافات متقاربه كلٌّ من (فلاد) و (رادو) على جوادين بنّيان اللون أقوياء البنية، نظر السلطان إلى ابنه الأمير في انبهار ولكنه لم يطِل إليه النظر في الوقت الذي كان (فلاد) يرمقه بنظرة لا تنمّ عن خير.

أشار السلطان للجميع بالتحرك حيث كان يتبعه أربعةٌ من الرجال الأشداء، وأربعة مثلهم تبعوا الأمراء الشبان.

كانت أوامر السلطان واضحةً لا ريب فيها ولا غموض وهي

بألا يفترق الأمير (محمد) الذي كان يقود الفرقة الاخرى عن الموكب.

سار الموكب بنظام حتى دخلوا وسط الأدغال، هنا أشار السلطان لهم بالتوقف ثم قال صوت عالٍ يسمعه الجميع:

(سننتشر جميعًا على ألا نتخطى هذا المحيط).

ورسم بسبابته دائرة وهمية، انتشر الجميع بعدها؛ تنفيذًا لأوامر السلطان، الذي لمح بعينيه المتربصتين غزالةً تسير بحثًا عن رزقها فقال لرجاله مبتهجًا:

(حان وقت العمل).

بينما كان يسير الأمير (محمد) بجواده الأدهم قويُّ البنيان في تؤدة يتلفت حوله في ترقب وتركيز، وإذ بالأمير (فلاد) يقترب منه ويوسوس له قائلًا:

(لما لا نجرب الصيد في هذا الجزء من الغابة؟ لأشد ما يقتلني الفضول أن أقتحم غموضه وخباياه). رد الأمير باقتضاب:

(هذا يعني أننا سنخرج عن المحيط الذي حدده لنا السلطان!).

(إنَّ مولاي السلطان شديدُ الحذر ولكنني لا أشك أننا في

اختبار).

(اختبار؟!).

(بالطبع، إنك إن حكمت عقلك فستتوصل لهذه الحقيقة).

استغل بالطبع أمارات التفكير التي لاحت على وجهه فأتبع قائلا:

(علينا أن نثبت لمولاي ولمعلمينا أننا تدربنا وتعلمنا جيدًا وأن مجهودهم لم يضِع هباءً).

تحولت أمارات التفكير إلى بوادر ميل لدي القائد، فمال على أذنه وقال:

(لا تنكر يا سيدي أن روح المغامرة بداخلك تصرخ).

التفت القائد إلى الأمير (رادو) الذي كان يراقب حديثهما فسأله:

(وما رأيك يا أمير رادو؟). نظر الأمير (رادو) إلى أخيه (فلاد) وأجاب متلجلجًا:

(بالطبع ساااا..أذهب معكما).

هنا قال (فلاد) بحماس مكبوت:

(علينا أن نذهب ثلاثتنا فقط).

أومأ القائد متفهمًا والتفت إلى الرجال الذين يتبعونهم وقال:

(تقدمونا لتكشفوا لنا المكان ونحن خلفكم).

قال أحدهم في خشوع:

(ولكن يا مولاي علينا أن نلتزم بأوامر مولاي السلطان بعدم الابتعاد).

قال (فلاد) بطريقة تكسوها العجرفة:

(منذ متى وجنديٌّ صغير يجادل السلاطين والأمراء ياهذا؟!).

قال الأمير وكأنه لم يسمع ما قاله:

(لا تقلق... عليكم الآن أن تراقبوا لنا الطريق).

تقدم الجنود الأربعة، وقد بدا على وجه الرجل الذي كان يحادث الأمير عدم الرضا، بينما أشار الأمير محمد لكلٍ من فلاد ورادو باتباعه.

ساروا حتى اخترقوا حاجز الأمان، وكان الصمت حليفهم إلا أن تناهى على مسامعهم صوتُ أقدام خيول، فأشار الأمير (محمد) بالتوقف لينصت لذلك الصوت، وفجأة ظهر رجال ثلاثة ملثمين يمتطون الخيول، والذين اعترضوا طريقهم،

فندت عن الأمير نظرةَ تحفز، بينما كان فلاد يبتسم ابتسامة شيطانية، أما (رادو) فكان يكتم خوفه بين خلجات سكوته.

أمرهم رجلٌ من الرجال الثلاثة الملثمين بالترجل عن خيولهم، فترجل الأمير لا امتثالًا لأمرهم، وإنما استعدادًا لأمر ما، وقال لهم بصوت أجش متحدٍ:

(أنا الذي سأواجهكم). وأشار إلى الآخرين بألا يتدخلوا، فقال ذلك الرجل بصوت أجش:

(أراك ترحب بالموت!).

فقال الأمير الصبي الذي بَدَت عليه الثقةُ والثبات:

(أنا لا أخاف الموتَ، أتخافه أنت؟!).

***

صاح (آنجين) في ذهول:

(مرةً أخرى يا جدي تقف عند نقطةٍ مهمة). نظر للمحيطين فوجدهم يحملون الذهول ذاته ولكنهم لم يفصحوا، إلا أن العم (آركان (عقب قائلا:

(قسطًا من الراحة يصفي الذهن ويمهلنا لالتقاط الأنفاس). عرف كل الحاضرين أنه طالما توقف العم (أركان) عن الكلام، فلا أمل أن يستأنف حكايتَه اليوم، فغادر (آنجين) و(ينال)

لا يملكان سوى الصبر والانتظار للغد، كذلك المحقق الذي دخل غرفته بعد أن ودع الحكيم الراوي.

في ركن الغرفة حالك الظلام، وجد المحققُ نفسَه يفتح عينيه؛ ليتجول بهما حتى استقرتا على ركن عن يمينه، ليُفاجأ بإضاءة صفراء مسلّطة - كتلك الإضاءة التي تُسلّط على الممثل بالمسرح - على جثةِ رجلٍ ملقًى على الأرض فانتفض واقفا، ثم سار ببطء نحو الجثة؛ ليركز بصرَه عليها، فغر فاه لمّا تبيَّن له أن هذه الجثة للنقيب (حسام)، كان ساكنًا جاحظَ العينين، وجد أسفل رقبته بقعةً من الدماء، كما لاحظ أن هناك جملةً كُتبت بقطرات الدم على صدره والتي كانت تقول: (ذو الرأس الفارغة هو من يدفع الثمنَ دائمًا).

***

فتح (نجيب) عيناه ليجد نفسَه راقدًا على سريره وبتلك الغرفة التي خصصها له العمُّ (أركان) ، ضغط على زر النور لينظر إلى الركن ذاته الذي وجد به جثة مساعده ملقاة، فلم يجد شيئًا، فعرف أن ما رآه لم يكن حقيقيًا وإنما كان بين فكي كابوس مزعج، سمع طرقًا على الباب ولما أذن بالدخول برز الخادم وعلى وجهه أمارات القلق وقال له:

(إن آنجين بالخارج ويريدك يا سيدي في أمر عاجلٍ وخطيرٍ).

(لقد عُثر على السيد (حسام) مقتولًا بغرفته!). أسقط في يد المحقق بعد ما أخبره (آنجين) لتنقلب الأمور رأسًا على عقب وليعود ليفكر أن ما رآه هو حقيقة وليس حلم، رغم أنه لما استيقظ لم يجد شيئًا مما رآه!

قال (آنجين):

(سأذهب الآن لإجراء المعاينة). ندت عن (نجيب) التفاته إلى العم (أركان) الذي غمره الحزنُ والأسى وقال موجهًا حديثه إلى (آنجين):

(هل لي أن أحضر معك المعاينة؟).

أومأ (آنجين) برأسه موافقًا وأشار له بالمغادرة.

***

المشهد ذاته الذي رآه في حُلمه يتجلى أمامه الآن، فالجثة جاحظة العينان، وهناك بقعةُ دمٍ أسفل رقبتها، إلا أن الشيء الأكثر وضوحًا من الحلم أنه رأى تلك الجملة منقوشةً على بطنه كمن كتبها بسكين وأخذ يخرق جلدَ بطنه خرقًا ليكتب تلك الجملة اللعينة.

(ذو الرأس الفارغة هو من يدفع الثمن دائمًا!).

انتهى (آنجين) من المعاينة مشيرًا إلى رجلي الإسعاف

بحمل الجثة، والتفت إلى (نجيب) الذي لاحت عليه علاماتُ التأثر، فقال له:

(ما هذه الجملة الغريبة التي كتبت على بطنه؟!).

(أظن أن هذه رسالةٌ موجهةٌ إليّ). حدجه (آنجين) بنظرة طويلة ثم سأله:

(أتظن أن هناك ثمةَ رابطٌ بين هذه الجريمة وجريمة سرقة السيف وقتل الأعضاء الأربع؟!).

(دون شك). ومضيا في طريقهما إلى مغادرة الفندق وعند الباب الخارجيّ للفندق، سأله (آنجين) عما إذا كان سيرافقه إلى مكتب التحقيقات فأخبره الآخر أنه سيعود إلى العم (أركان)، وقال في قرارة نفسه: إنه لا يزال في حاجة لمعرفة المزيد عن ذلك السفاح السابح عبر الأزمنة!

(11)

ذو الرأس الفارغة هو من يدفع الثمن دائمًا!

نظر العم (أركان) إلى المحقق نظرةً مليئةً بالإشفاق فهو غارقٌ في بحر من الشرود يفكر ودماغه يعمل في سرعة وفي قسوة دون أن يدري أنه يجهدها ويهلكها.

سأل المحقق متجاوزًا فترة الصمت:

(ألن تخبرني عما دار بين الأمير والرجال الملثمين؟). ألتفت حوله ثم سأل مقطب الجبين:

(أين السيد ينال؟!). وكانت الإجابة أسرع مما يتخيل، فلقد طُرق البابُ ليفتح الخادم ليأتي (ينال) فابتسم المحقق ابتسامة خفيفة، وبعد أن ألقى (ينال) التحية، شرع العم (أركان) في استئناف الحكاية.

***

(أنا لا أخاف الموت ولكن هل تخافه أنت؟!).

عرف الرجل بعد أن سمع كلمة الصبي وبعد أن رأى ملامح الصرامة على وجهِه أنه اتخذ قرارًا لا رجعة فيه وأنه لا يخاف ولا يجبُن حتى لو رأى الموتَ متجسدًا أمام عينيه.

أخذ الملثم يدور حوله بعد أن أخرج سيفه، والأمير يركز بصره على سيفه، وعلى ما قد يفعله أيٌّ من الرجلين. باغته الملثم بضربةٍ من سيفه إلا أنه يقظٌ منتبهٌ فصدها بدرعِهِ، ووثبَ بدوره مسددًا ضربةً من سيفه، صدَّها الآخر وراحا يتبارزان حتى باغته الأمير بلكمة في وجهه أفقدته توازنه وقبل أن يستعيده باغته بضربةٍ أخرى بدرعه ثم عاجله بضربة بسيفهِ لتخترق قلبه، ليسقط صريعًا.

ندت عن الأمير التفاتةٍ نحو الرجلين الآخرين إلا أنهما سرعان ما لاذا بالفرار، وبحماسة الشباب امتطى جوادَه وقبل أن يحثَّه على الركض تذكر نصيحة الشيخ (آق) والذي كان يقول له: (إياك أن تتبع الفلول لربما يكون مُعدٌّ لك كمينٌ). إلا أنه فوجئ بهذا (الفلاد) يركض بخيله حتى لحق بالرجلين، فاضطر الأمير أن يتبعه، وما إن وصل حتى فوجئ بفلاد ينقض على أحدِهما بضربة من سيفه اخترقت أسفل رقبته، فاقشعر بدنه من بشاعة القِتلة، كان الرجل الآخر مرتجفًا فصرخ قائلا:

(إني أستسلم). قال الأمير (محمد):

(اتركه يذهب طالما استسلم). نظر (فلاد) إليه بعينين يملؤها ذلك الخُبثُ الشيطانيّ وقال بصوت الموت:

(لا رحمة لمن ضعف!). وبضربة قاسية من سيفه أسقطَ

رأسه من فوق كتفيه فسقط الجسد على الأرض متساويًا مع الجماد، فأسقط في يد الأمير وهو ينظر له بعينين يملؤها الاستنكار لِما فعله (فلاد) بوحشية، كانت عيناه البريئة تتسائل:

(من أيّ جحيم أتى ذلك الشيطان؟!).

بدا على السلطان (مراد) مزيجٌ من علامات الغضب والإعجاب، وهو ينظر إلى ابنه، كان يتأمل جثة ذلك الرجل الملثم الذي قضى عليه ابنُه، ولما انتقل بنظره إلى هاتين الجثتين، فاستوقفه وحشية قتلهما، فوجه سؤاله ل (فلاد) :

(أنت من قتلتهما؟).

فأومأ الآخر برأسه بالإيجاب، فتمتم السلطان ممتقع الوجه: (لبئس منبث الشر)، عاد ليتأمل وجه: (فلاد) فاصطدم بذلك البريق الذي تبرق به عيناه، ذلك البريق المخيف المنذر بثورة الطبيعة وغضبها.

التفت إلى ابنه وقال بنبرة لا تخلو من الصرامة:

(ستقودنا إلى القصر أيها القائد، فلترشدنا).

***

سأل (رادو) في اندهاش:

(هل قمت باستئجار هؤلاء الرجال لقتل ابن السلطان؟!).
ضحك (فلاد) ساخرًا ثم قال:

(وكيف أتمكن من ذلك وأنا في القصر ومحاطٌ بهذا الكمِّ من الحراس؟! ثم إني قتلت اثنين من هؤلاء الأغبياء!).

(وبما تفسر ما حدث إذن؟).

(حدث على سبيل الصدفة صدقني).

(ماذا إذن وسوست له بالخروج عن النطاق الذي أمر به السلطان؟!).

(كنت فقط أبغي أن أظهرَه أمام أبيه بمظهر العاصي المتهور).

أتبع بعد أن ركز البصر إلى أخيه وابتسم ابتسامةً خبيثةً قائلا:

(لقد سمعت من والدي ذات مرةً أن هؤلاء العثمانيين خطرٌ علينا وعلى إمبروطوريتنا وهذا الأمير بالأخص عدوٌّ لي إلى الأبد).

غضب (فلاد) فجأة، فجذب أخيه من تلابيبه وقربه إليه وقال:

(المجد لنا أيها الغبي أفهمت).

***


ساحر الكتب

(12)

بعد أن سمع الوالد من ابنه ما حدث هدأ غضبه، وترسَّخ في داخله ذلك الشعور بالإعجاب، وعرف أن ذلك الشبل سيكبر ويشتد عضده، ليصبح أسدًا هصورًا، وبالنسبة لذلك الصبي الشيطاني، فلقد تيقَّن أنه جاء من نبتة شر، ولكنه في الوقت ذاته لا يستطيع أن يخلف ذلك الوعد الذي قطعه مع (فلاد الثاني (بحمايته حتى يسلم الأمانة إلى أصحابها برجوع الولدين إلى أبيهما، فإنه يقدس شرف الكلمة، فلم يكن أمامه سوى أن يحترس منه وأن يحمي ابنه السلطان القادم من أن يبثَّ سمَّه الملعون.

طُرق الباب ليقطع عنه تفكيره، ودخل أحدُ الحراس ليخبره أن رجال الدولة ينتظرونه في الفناء الخاص بالتدريب ذلك الفناء الذي كان يناور فيه الأمير وإينار.

كانت المواجهة اليوم بين (إينار) و(فلاد) اللذان وقفا أمام بعضهما البعض وفي عينيهما شَذر الشر يتطاير، حيّا بعضهما البعض بأدب الأفاعي ثم حيّا السلطان وأعوانه.

همس (إينار) وهو يبتسم ساخرًا:

(سأريك تجربةً ممتعة عن الموت). ابتسم (فلاد) ساخرًا بدوره قائلا:

(أما أنا فسأريك ما هو أمتع من الموت).

راحا الاثنان في صراع عنيف، لاحظ فيه السلطان ورجاله أنه قتال وليس مجردُ مناورة أو تدريب، فالتفت بقلق إلى الشيخ (آق) الذي كان لا يقل عنه قلقًا، تمتع (فلاد) بقوة رجل خابر القتال وعاش في أغواره رغم صغر سنه، كان لا يقل عن (إينار) ضخامة، وكان يعتمد على تلك الضخامة في الاندفاع نحو خصمه. قال (إينار) وقد بدا على وجهه الانزعاج:

(مالك تقاتل بحَمِيَّة إنه مجرد تدريب؟!).

(إني أقاتل بجدية دومًا يا هذا).

قفز إليه ليسدد ضرب قوية بسيفه، أطاحت بدرعه ووثب عليه ليسقطه أرضًا ثم ضربه بالسيف على درعه لينفجر منه شلالًا من الدم فصرخ الآخرُ وسطَ ذهولِ السلطان الذي صرخ بالحرس قائلًا:

(أوقفوه!).

قال (فلاد) وهو ينظر إلى الساقط أرضًا في تَشفٍّ:

(قلت لك أني سأريك ما هو أمتع من الموت).

سدد له ضربة أخرى استقرت بقدمه لينفجر شلالًا آخر من الدم وأتبع قائلا:

(وهو الدم). صاح (إينار) في ألم وغضب:

(ماذا تفعل أيها المجنون). قال (فلاد) في استهانة:

(انتبه للغتك يا رجل فأنا ابن ملك، تأدب في حديثك كما تتأدب مع ابن السلطان). صاح الآخر:

(تبًا لك).

(إذن فلقد حان وقت عقابك).

رفع سيفه ليسدد ضربة وقبل أن تصيبه، فوجئ (فلاد) بسيف يعترض سيفه قبل أن يصيب هدفه، فنظر إلى صاحب ذلك السيف! ليجد الأمير (محمد) وهو يقول له (ماذا أنت فاعل، أتريد أن تقتله؟!).

قال (فلاد) في استنكار:

(من قال أني سأقتله.. لو انتبهت لضربتي ستجد أن سيفي كان موجهًا إلى وجهِه وليس قلبه! ولو أردت قتله.. لكنت قتلته منذ البداية). التفَّ الحراس حول (فلاد) وقال له كبيرهم:

(سأرافقك إلى غرفتك يا مولاي).

قال (فلاد) وهو يتلفت إلى (إينار) الذي كان يعاني الألم والذهول معًا:

(أرأيت كيف يتحدث الرجال يا هذا؟ تعلم منه).

ذهب (فلاد) مع كبير الحراس، بينما تبعه الأمير (محمد) بنظره وهو يتمتم قائلا (أيها الدموي!).

***

مرت الأيام على السلطان عصيبةً قاسيةً، وذلك من طبائع الأمور حيث إنه كان يهتم بالفتوحات لتوسعة الدولة، وجاء يومٌ تنازل فيه عن الحكم لابنه (محمد) ليتولى شئون الحكم بدلًا منه، ولكنه كان يعود للحكم ليواجه المؤامرات التي تُحاك لابنه، إلى أن جاء اليوم الذي شعر السلطان فيه بأن وقت الرحيل قد حان، فسلم بذلك عن رضا وامتنان، وعرف في قرارة نفسه، أنه ولابد أن يسلم اللواء لابنه، بعد أن أعلنت روحه برغبتها في مغادرة جسده الفاني، جلس بجواره الشيخ (آق) الذي استمسك برباطة جأشه كاتمًا دموعه المتحفزة للانهمار، والأمير (محمد) والخاصة من رجال الدولة المخلصين، ينظرون إليه نظرةَ الوداع، صامتين احترامًا لهيبة الموت الذي دُقت طبولَه معلنةً عن قدومه، همس السلطان المحتضر في أذن الشيخ، فأشار الاخير لهم بالمغادرة عدا الأمير (محمد)، أشار له والده بأن يجلس بجواره وقال له بصوت واهن يكاد أن يخرج:

(بُنَي! وصلت لآخر الطريق وها أنذا على أعتاب السكون وليس من ذلك محيص).

لمح دموع تسيل على وجنتي ابنه، فامتقع وجهه وقال وهو يجاهد لآخر نفس لديه:

(ليس لهذا خُلق الرجال، اسمع واحفظ عني ما سأقوله لك وانتبه.).

قال وليُّ العهد بصوت متهدج:

(قُل يا والدي كلي أذان مصغية).

(أتعلم الغرفة التي كنت أنهاك عن دخولها؟ الآن عليك دخولها، وعندما تدخلها ستجد كنزًا تركتُه لك فلا تُفرط فيه!). شهق السلطان شهقته الأخيرة، ليتوحد مع السكون، وأسبل ابنه عيناه في تأثر ليطلق لدموعِه العنان لتبلل وجنتيه تحاول في يأس أن تواسيه ولكن ما زادته إلا حزنًا.

***

خالجت المحقق مشاعر مختلفة حزنٌ وترقبٌ وفضولٌ، فقال وهو أسير ذلك المزيج:

(كالعادة يا جدي تقف عند النقطة الحاسمة، كنت أريد أن أعرف عن ذلك الكنز الذي خلَّفه السلطان مراد الثاني.).

ضحك الشيخ في ضعفٍ وربَّت على كتفه وقال:

(هلمَّ للراحة يا ولدي).

اتجه (نجيب) لغرفته ومن ثم لسريره، وأغمض عينيه ولأول مرة يشعر ببعض الوهن راح في سُباتٍ عميق؛ لترتاح مشاعرُه المتزاحمة مؤقتا.

***

سار في طريقٍ غير مُمهد غطّاه الغبار، والجو ملّبد بالوحشية، كأنه يسير في الجحيم، ينظر بأسى وغضبٍ إلى تلك الجثث المعلقة على خوازيق مدبَّبة، والدماء تقطر منها، زُرفت من عينيه الدموع بحرارة على وجنتيه إلى أن وصل إلى رجلٍ كان معلقًا على خازوق يفوق باقي الخوازيق طولا، فتراجع مفزوعًا، شعر أن هذا الرجل المعلق يعرفه بطريقة ما، دون وعي منه وإرادة أطال النظر إليه وإذ بالرجل الميت يفتح عينيه قائلًا له:

(من سيدفع الثمن؟!).

تراجع في سرعة ليفقد توازنه، وقبل أن يسقط على الارض فتح عيناه ليجد نفسه في تلك الغرفة، راقداً على ذلك السرير، ليكتشف من جديد أنه كان في كابوسٍ قاسٍ، كابوسًا بطعم الوحشية.

***

عاد (آنجين) ليشارك (كُلًّا من المحقق و(ينال) سماع الروايات عن الفاتح ودراكولا، ينظرون في صمت إلى الشيخ العجوز، اختلفت تلك الجَلسة عن الجلسات السابقة، فقد كان يخيّم عليها جوّ من الكآبة، افتتح (آنجين) الحديث قائلًا (لم يكن هناك شيءٌ جديدٌ بالتحقيق، فقد أحاطه الغموض منذ البداية، وكأننا نسير وراء سرابٍ). لم يعلق المحقق فلقد تنبأ بذلك كله، فلم يَخُضْ في إجراءات لا طائل منها.

أتبع (آنجين) قائلا:

(لا بصمات لا آثار موجودة، كأن هناك شبحًا ما قتل هذا المسكين).

(كل تلك المعطيات ستؤدي بنا حتمًا إلى ذلك المجرم اللعين الذي نحاول حلَّ عقدة القبض عليه).

لأول مرة يشعر فيها (نجيب) بالعجز أمام قضيةٍ، فهو في مباراةٍ غير متكافئة، إنه حقًّا حادُّ الذكاء، يمتلك قدرات تحليلية منقطعة النظير، ولكنه أمام ظاهرة، يحاول حتى الآن إزالة اللِّثام عنها كي يستطيع اكتشافها.

لم يملك إزاء ذلك سوى أن يسمع من هذا الجدّ الذي كان

يغمض عينيه مستسلمًا لغفوة قصيرة، ربت على ركبته في لطفٍ حتى فتح عينيه ثم قال له:

(إني أتضورُ فضولًا؛ لمعرفة ذلك الكنز الذي تركه السلطان مراد الثاني لابنه).

(13)

فتح السلطان (محمد) باب غرفةِ المجهول، المخبأ بداخلها ما يثير الفضول والرغبة العارمة في كشف ما بين طيّات صفحاتِ تلك الغرفة، شاهد بوسطها -ما يشبه المنضدة التي كانت مزخرفة بنقوش عثمانيةٍ، وضع عليها سيفٌ طويلٌ مصنوعٌ من الحديد الدمشقي ومنقوشٌ عليه اسم (محمد الفاتح! (آثار ذلك لديه الاندهاش، (محمد الفاتح!)، تسائل من هو (الفاتح؟!) هل يقصدني أبي بهذا اللقب؟!

لما دقّق النظر لاحظ وجود عُلبةً من الخشب، فلما اقترب منها وجد عليها نقوشًا اتخذت شكل إطار، كُتب بداخله جملةً نُقشت بالذهب وهي:

(الحكمة درةٌ، وفقْدها مدرة). فتحها وقد بلغ لديه الفضول مبلَغه، فوجد لِفافةً ورقية من الورق العثماني وقد كُتب عليها تلك العبارات:

(ابني... هذا سيفك... لا ترفعه على امرأة أو عجوزٍ أو طفل، ولا ترفعه على ضعيف، واحذر يا بني أن ترفعه على جبانٍ؛ لأنك إن قاتلته رفعت منزلتَه وإن غلبته أو قتلته شانك وحط من قدرك.

هذا سيفك، نقش عليه اسمك يسبقه لقبُك الذي لقبتك

إياه وهو أمانةٌ بعنقك فلا تَخُنْها، فإن كَتب اللهُ عليك أن تفتح بلادًا فافتح بالحق، لا تغتر يا بني بقوتك فإنها فانية، لا تسخرّها إلا على كل طاغٍ متجبرٍ واخفض جناحَك لمن يسترحمك واجعل عفوَك عمن تهزمه حمدًا لله على قدرتك عليه.

واعلم يا بني أن الشجاعة ليست فقط بخوض المعارك، وإنما بقدرتك على الرجوع إلى الحق، فلا تأخذك العِزةُ بالإثم واذهب للحق ولو كان في بلاد سحيقة.

ولا تستنكف أن تشاور معاونيك المخلصين منهم، فلا خاب من استشار ولا نُصرة لمن انفرد برأي، قوتك يا ولدي في الجماعة فهم خيرُ سند فاجمع ولا تفرق.

وأخيرًا سيفُك تاريخُك فحافظ عليه فإن ضاع منك ضِعتَ وهلكت).

قال وهو يحدث نفسه: (تلك الوصية يا أبي ومحمد الفاتح هو لقبي، القى نظرة إلى الوصية مرةً أخرى ثم قال:

(هذا هو الكنز).

زُرفت دمعةً من عينيه دافئة سقطت على الوصية، لتصنع بقعةً من الماء، وكأنه يوثّقها بمشاعره التي باتت دافئة تحتضنه وتواسيه بأن اللقاء مهما طال فإنه قريب.

***

منذ أن تولى (محمد الفاتح) مقاليد الأمور وهو يبذل جهودًا كبيرة في التخطيط وتنظيم الصفوف، لينتهج منهجَ والدِه وأجدادِه في الفتوحات، فعمل على تقوية الجيش العثماني حتى وصل تعدادُه إلى قرابةِ رُبع مليون جندي، وقد حرص على تدريب تلك الجموع على فنون القتال المختلفة وبمختلف أنواع الأسلحة، برزت شخصيتُه القياديّة من خلال إدارة شئون الدولة، كما برز ما تعلمه في مدرسة الأمراء، من علوم تلقّاها على يد النجباء من العلماء، في المقابل كان يتابع أخبار الولايات الخاضعة تحت إمرته، وقد أزعجه ما وصل له مؤخرًا من الأمير (فلاد الثالث).

سأله الشيخ (آق) وهو يراقب أمارات القلق التي وضحت على وجهه:

(ما الذي يشغل بالك يا ولدي؟!).

التفت (الفاتح) إليه بنظرة صامتة ولم ينبس بكلمة، فتحرج الشيخ قائلا:

(عذرًا يا مولاي، هل تجاوزت حدودي بدعوتك بولدي و....).

قاطعه السلطان وقال له بصوت مليء بالمحبة:

(لا تكمل يا شيخ، فأنت والدي الثاني وأنت وإن دعوتني بغير ذلك فيكون ما قدمته لي مجرد هباءً منثورا).

لاح الامتنان على وجه الشيخ (آق) وقال:

(مازلتُ منتظر معرفة ما يدور بداخل خُلدك يا ولدي).

(هذا الملعون (فلاد) الذي وليناه على ترانسيلفانيا، يقتل الآلاف من الأبرياء، بجانب ميله الخفي إلى الانفصال عن حكمنا). جذب الشق الأخير انتباه الشيخ (آق) فسأل منزعجا:

(وكيف ذلك؟!).

(امتنع عن دفع الجزية، فأرسلت له ألف جندي بقيادة حمزة باشا ليعقدوا معه اتفاقًا وإلا سأشن عليه حربًا تردعه وتقطع باتره).

***

كان (فلاد) يستمع إلى رجله وهو يداعب شعرَ ضَبعٍ بجانبه مقيدًا بالسلاسل والذي كان يزوم غضبًا، كان ذلك الرجل يقول:

(محمد بن مراد أرسل لك حمزة باشا ومعه ألف جندي).

ضحك (فلاد) ضحكة شريرةً أزعجت الضبع فانتفض جسده، وقال:

(لا بد إذن أن نكرمَ وفادتهم). أذن له بالمغادرة، واتجه هو إلى غرفة أسفل قصره، وصفق الباب عليه لينظر إلى قارورةٍ أمامه وفي عينينه لمعةٌ غريبة تُنذِر بشيء شيطاني!

***

كان (حمزة باشا) في طريقه إلى ترانسيلفانيا ففوجئ بمجموعةٍ من الفرسان بقيادة (فلاد) بشحمه ولحمه وشره الذي غلب شر الشيطان المُنْظَر إلى يوم يبعثون، كان جميعهم ملثمون لا يلوح منهم إلا أعينهم، حاصروهم داخل دائرةٍ وهم يسحبون عددًا من الدِّبَبة والضباع الجائعة. أبرز (فلاد) ما يشبه اللفافة، ثم نَثَرَ منها ما يشبه الغاز في الهواء، وما إن استنشقه (حمزة باشا) وجنوده حتى أصابهم الدوار، فلاح لهم (فلادُ) وجنودُه كعفاريت، تبرق عيناها بالبياض أما تلك الضباع والدببة فكانت تخرج منها نيران حمراء حارقة، فصرخ الجنود صراخ دوى بالمكان كله، فارتعدت له السماء واهتزت له الأرض.

قال (فلاد) بلغة تقطر منها الدماء:

(أرى أن الفيروس قد سَرَ مفعولُه بينكم أيها العثمانيون..

والآن حان وقت الهدية).

أشار لجنوده بقيادتهم إلى مكان معلوم لديهم، ليمارس ما يبرع فيه دائمًا.

لم يَرَه (آق) غاضبًا كتلك المرة، فلقد أحمر وجهه الأبيض لدرجة تظن معها أن الدماء ستُضَخ منه، وهو يستمع إلى أحد من رجاله والذي قال في أسى:

(لقد ضخ غاز في الهواء فبدا على الجُند وكأنهم فقدوا عقولَهم فأخذوا يصرخون وكأن قد مسَّهم الشيطانُ).

طرق (الفاتحُ) مقبضَ الكرسيّ بيده والغضب يأكله وصاح وكأنه يزأر:

(لقد طفح الكيل من هذا القاتل عتيد الإجرام).

نهض من كرسيِّهِ وجسمُهُ يهتز من شدة حَنقِه وسخطِه اقترب من قائد الجيش وقال له (أعدّ جيشًا عَرَمْرَمًا يُطفئ نورَ الشمس، يُظلم النهارَ ليُحيلَه ليلًا من كثرته وسأقوده أنا إلى هذا الخسيس). ذهب القائد مسرعًا لتنفيذ ما أمر به السلطان الغاضب، أما الشيخ (آق) فكان يظفر إشفاقًا على ولده، فأخذ يدعو له بالثبات والقوة.

***

(14)

انطلق (الفاتح) بمقدمة جيش مهيب، يزلزلون الأرض تحت أقدامهم، ذاهبون إلى حيث يوجد هذا الشيطان الأنسيّ ليقطعوا باتره.

في أثناء سيرهم قابلوا مكانًا تفوح منه رائحةُ الموت المخلوطةِ برائحةِ الغدر والخِسَّة، شاهد القائد (الفاتح) من بعيد مشهدًا لخوازيقَ مخترقة أجساد جنود، فأمرهم بالتوقف بينما ركض بجواده حتى اقترب منهم، ليستبين أنهم رجاله الذين أرسلهم إلى هذا السفاح، ولاتزال جثثهم تقطر دمًا وكأن الجريمة لاتزال تصرخ بما اقترفته الأيدي الآثمة. كانت عيونهم شاخصة، وقد بدا الرعب على وجوههم المتصلبة الشاحبة، كان يسمع فحيح الشر محيطٌ بالمكان، ويشعر بمسِّ اللعنة توكز جانبيه من كل ناحية، مر بينهم حتى وصل إلى جثة (حمزة باشا (يخترق جسده أكثر الخوازيقَ طولا، ركّز بصره على الجثمان، فإذ بالميت يفتح عيناه فجأة ويسأله

(من سيدفع الثمن؟!).

من هول المفاجأة، هبط من جواده وأسند راحة يده على ظهره، ليعرف إن كان ما رآه حقيقةً أم خيال! اهتز جسده

فجأةً إيذانًا ببكاء حار، يبكي هذا المشهد البشع الذي لم يتوقع أن يراه في أي يوم من الأيام، لقد سمع حتمًا عما يفعله هذا الجزار، ولكن أن ترى الجريمةَ أقسى مِن أن تسمعَ عنها.

مسح دموعه الساخنة ونظر إلى جثة (حمزة باشا) ، وأقسم بينه وبين نفسه أن يقطع دابر هذا الفاسد.

(فليقطع دابر الفاسدين)......

علم (فلاد) بقدوم (الفاتح) إليه على رأس جيشًا لا تحصيه الأعين، ولكن بعد أن حاضر الجيش ولايته بالفعل، فتيقن أنه لن يستطيع الفكاك، فثار كالمجنون وصاح بجميع جنده بأن يخرجوا للفاتح وجيشه حتى حرس قصره أمرهم بالخروج.

والتحم الجيشان ولكن بالطبع كانت الغلبة للجيش العثماني، فلقد أثمر ما دربهم عليه (الفاتح)، وطبقوا ما تدربوا عليه من استخدام أسلحة ومناورات وحيل فسرعان ما انهار أمامهم جيشُ (فلاد) الذي دخل القائد (الفاتح) قصره، فإذا به يسمع صوت ضحكات تدوي بأركان القصر الخالي من ثمة حرس.

دوى صوت بالقصر يقول:

(لقد أتى ضيفٌ بقصرنا لابد أن نكرم وفادته).

وظهر (فلاد) أمام بصر (الفاتح) فلم يستطع الأخير أن يمنع نفسه من الاندهاش من مظهره الذي تغير عما كان عليه أيام صباه، فلقد رأى رجلًا متهدلَ العينين، وجهه طويل برز منه العظمُ، له ذقنٌ مدبب عجيب، جسده رفيع دون ضعف شعره أسود بلون ظلام الليل الدامس.

قال (فلاد) في كبر:

(أنا جاهز يا صديقي للاحتفاء بك). بينما لم يكن على لسان (الفاتح) سوى جملة واحدة يرددها بغضب مشهد الجثث المعلقة الذي لا يزال يدور برأسه:

(فليقطع دابر الفاسدين!).

***

لم يكن العجوز الوحيد الذي لاحظ شرود (نجيب)، بل (آنجين) و(ينال) لاحظا ذلك، فانتبه المحقق إلى أعينهم المسلطة عليه، فالتفت إلى العم (أركان) يقول له:

(هناك أمر يتكرر معي لا أجد له إجابة!).

نظر (أركان) إلى (ينال) نظرة العارف ثم قال:

(ما يشغل بالك يا بني؟ قُصَّ لنا ولا تتردد).

(هناك أمور حدثت مع السلطان (محمد الفاتح) أشعر وكأني مررت بها بل كأني أنا الذي عايشتها.. أنا ذات الشخص، خاصة موقف الجثث المعلقة على الخازوق، لقد شاهدته في منامي، وكنت أنا الذي أمر بين الجثث وليس السلطان (الفاتح). سكت لحظةً ثم عاود الحديث سائلا:

(هل لديك تفسيرًا لهذا؟!).

دعا (أركان) خادمه وأمره بأن يحضر عُلبة الشطرنج، فاستغرب المحقق لهذا ولكنه لم يعلق بشيء.

وما إن وضع رقعة الشطرنج أمامه حتى قال العجوز:

(هل تجيد لعبة الشطرنج؟).

أجاب المحقق بشيء من التحرج:

(ألعبها وأعرف قواعدها، ولكنني لستُ محترفا في الحقيقة). (لعبة الشطرنج لعبةً ممتعةً تدرب العقل وتنعش الذاكرة). سأل العجوز:

(بأيّ لونٍ تريد أن تلعب؟ الأبيض أم الأسود؟).

(سأختار الأبيض). أومأ (أركان) برأسه متفهمًا وقال:

(بالطبع الأبيض).

مرر المحقق نظره إلى (آنجين) و(ينال) اللذان كانا يراقبان بشغف المباراة التي ستبدأ بعد قليل، ارتسمت على وجهه ابتسامةً خفيفةً وهو يحرك بيدقَه خطوتين.

فقال (آركان):

(لا ترسل الخراف لصيد الذئاب!). ما إن سمع المحقق تلك العبارة حتى شُلّ تفكيرُه تماما ومر شريطُ ذكريات برأسه فرأى عدة مشاهد متقطعة، مشهد مبارزة في الفناء أمام السلطان (مراد الثاني)، ثم مشهد مواجهةِ رجالٍ ملثمين، ثم مشهد صيدِ غزالة تركض في خوف، واستقر شريط ذكرياته على مباراة شطرنج تذكرها بجميع تفاصيلها!

***

(بما تريد أن تلعب ياولي العهد؟). قالها (فلاد) بطريقة مستفزة إلا أن (الفاتح) كان ثابتًا ثباتَ النخل جذروه متشبثة بالأرض لا تزحزحه ريحٌ عاتية، قال في ثبات:

(سأختار الأبيض). (بالطبع ستلعب بالأبيض). حرك (الفاتح) بيدقه خطوتين، فقال (فلاد) بمكر:

(لا تُرسل الخراف لصيد الذئاب!).

استمرت المباراةُ فترةً، كان (الفاتح) فيها هادئًا، أما الآخر

فكان يذهب إلى الجنون بسرعة البرق، واحمر وجهه حتى كادت أن تهطل منه الدماء أمطارًا.

رأى (الفاتح) جلد دراكولا ولا يستطيع أن يكذب عينيه وهو يتساقط من شدة غيظه، فلقد كان جيشه يتهادى أمام جيش (الفاتح) فما لبث أن قضى على مَلكِهِ، فنهض (فلاد) في انفعال وغادر المكان وهو يهمهم في غيظ.

***

كان (نجيب) في أوج اندهاشه وهو يروي قصة المباراة التي كانت بينه وبين (فلاد) وقال:

(لقد ذكرت لك تفاصيلها وكأني عايشتها.. كيف هذا؟!).
سأل العم (أركان) في استغراب:

(إلى الآن لم تفهم أيها المحقق اللبيب؟!).

أخذ المحقق يفكر هُنَيْهَةً من الوقت ثم برقت عيناه، حينما أضاءت رأسه بفكرة غريبة، ولكنها حقيقة لا مفر منها، فقال بحماسة المكتشف:

(هل تريد أن تقول أنني كنت أعيش حياةً أخرى في عباءة الفاتح؟!).

(أو الفاتح هو الذي يعيش الآن في عباءتك).

***

(يا ولدي استخدم عقلك ولا تعطله، فإنه نعمةٌ، فاشكر اللهَ عليه بإعمالك إياه). كان (محمد نجيب (يسمع تلك العبارة من السلطان (مراد الثاني (وكأنه ابنه، نظر إلى نفسه، ليجد نفسه صبيًّا يبلغ من العمر أربعة عشر عاما، ووالده يميل عليه ينصحه ويذكره!

وجد نفسه في مشهد آخر في الفناء يتدرب على مرأى ومسمع من السلطان ورجاله يبارز أحدَ الجنود على سبيل التدريب، ومدربه يصيح به بأن يقفز إلى الخلف، كان ذلك الصوت الذي سمعه أثناء مواجهته مع هؤلاء الأشقياء الذين اعترضوا طريقه.

تمر الآن عليه المشاهد تفصيلا، بات يتذكرها كاملة، وبات هو مالكها، ليكتب اسمَه عليها حتى لو كان في جسد مغاير.

ندت عنه ضحكةٌ ساخرة وهو يقول لنفسه يخاطبها:

(من أنت؟! السلطان (محمد الفاتح) أم المحقق (محمد نجيب)؟!).

دخل الخادم إليه غرفته، ليخبره في أدب أن سيدَه (أركان) يدعوه لمجلسه كالعادة

ولما ذهب إليه قابله (أركان) بابتسامة مشرقة وقال له:

(ستروي لنا الآن يا بطل ما حدث بينك وبين دراكولا في الموقعة الشهيرة!). كان طلبه مفاجئًا، شعر معه المحقق بتوقف مفاجئ في الوقت إلا أنه سرعان ما استجمع ذاكرته ورباطة جأشه ليتولى دور الراوي العليم.

***

قصر دراكولا، والشمس تشق بأشعتها السماءَ، بالطبع كان يومٌ خانق حارا!

لم يكن على لسان (الفاتح) سوى جملةٍ واحدة يرددها بنبرة يغلفها الغضب ألا وهي:

(فليقطع دابر الفاسدين!).

أخرج سيفه من غمده وفي عينيه مشاهد جنوده وهم مقتولين تقطر من جثثهم الدماء ساخنة، تلهب مشاعره الرافضة للسفك والأعمال التي يستنكف منها الشيطان ذاته.

أما (فلاد) فلقد ارتسمت على شفتيه ابتسامةً امتزجت فيها السخرية بالجنون، فلاح كالمسخِ الذي زالت عنه كلُ معاني الإنسانية، ولا أقول إنه حيوان، حتى الحيوان يتحلى بخصال الإنسانية التي نسيها كثيرٌ من البشر.

قال فلاد:

(أراك متعجلًا على القتال يا رفيق التدريب والتعليم).

(ماذا تعلمت؟!).

(لقد بلغت مبلغًا من معرفة علومكم لم يبلغها أحدٌ من العالمين).

(أعتقد أنك لم تبلغ من علومنا شيئًا، فإنما ما نَطقت بتلك الكلمات إلا شفاهٌ تغذيها دماءٌ فاسدة يضخها قلبٌ مظلم لا يعي).

(أووووه..... فلسفة ضحلة.. القلب الذي يعي أم العقل، فلنفرض جدلًا أن القلب الذي يعي، ولكن قلبي يحنو على بني جنسي ويبغض ما عساه، ولتعلم أن وعي القلب أو عماه، ما هو إلا وجهة نظر تختلف من شخص لآخر).

(أوفٍ منك يا مُدلس! أتكثر من القتل، ثم تدعي أن لك قلب، فما قلبك إذن إلا قلبٌ من لهيب الجحيم لا يطفئه النهم من الدماء، وإنما يزيده توهجًا وسعيرًا).

(دعنا لا نذهب بعيدًا ولأذكر لك مثالًا تدركه الأذهان وتفطن، لماذا تعيب فعلتي ولا تنكر على الشجرة أنها تساقط أوراقها كي يحيا ما تبقى منها متشبثةً بجذورها؟).

(ويحك يا (إبليس) ما أنت إلا شجرةَ زقومٍ لا أوراق لها، وطرحها رؤوس شياطين).

ضحك (فلاد) ثم قال ساخرا:

(إبليس؟!... تقصد (المُخلص) الذي شهِدتم له أنه كان أكثرَ العابدين إلا أنه عصى وطُرد من رحمة الله؟!).

(بل هو إبليس الذي أراد أن يقترب من الحقيقة فَضَلَّ، أراد أن يصل بالعبادة إلى شيءٍ خلاف الحب والرحمة، فنسي رحمة الله، ونُسيَ من الرحيم، فبئس القلوبُ قلوبكم، وبئس المآل مآلكم، فمن كان قلبُه من نار كأمثالكم فلا يكون مآلُه إلا النار).

(لما يا سيدي تبخس النارَ حقها؟! ألا تدفئ الأجساد وتنير الظلمات؟!).

(بلى إن كانت بردا وسلاما). هنا رفع (فلاد) سيفه وقال:

(إذن لندع سيوفنا تصطك لتخرج نارها المستعرة المتوهجة).

واصطك السيفان في معركة، باتت حامية الوطيس، كانت ضربات (فلاد) قوية قاسية، وكانت ضربات (الفاتح) لا تقل عنها قوةً، ولكنها دقيقة تعرف هدفها، كانت السيوف من شدة

ضربها تظن أنها ستُكسر، و» الفاتح (يثب في مرونة ورشاقة، أما (فلاد) فكان يبارز مبتسمًا خاليًا من أيِّ خوف، أو بمعنى أصدق خاليا من أن ثمة قلب ينبض.

وأثناء المبارزة ضاقت المسافة بين المبارزين، فوجدها (فلاد) فرصة مواتية، فركل (الفاتح) بقدمه ركلةً قوية، دفعته إلى الخلف ليسقط أرضًا، فوجدها فلاد فرصة سانحة، فانهال عليه بالسيف إلا أن الآخر رغم ضعف موقفه إلا أنه كان يصد الضربات في بسالة، وبحركة رشيقة ضربه «الفاتح» في مؤخرة قدمه ليسقطه أرضًا.

أمهله (الفاتح) مهلةً للنهوض ولم يهاجمْه كما فعل هو، فنهض (فلاد) وهو يضحك قائلا:

(إني لأرى نبل الفرسان فيك، وهي من صفاتك الحسنة، وكم من صفة حسنه قتلت صاحبها!).

ركض إليه في وحشية ليبارزه بالسيف وعاد السيفان يصطكان في قوة ولا شيء جديد يحدث، حتى قال (فلاد):

(حاول يا سلطان أن تأتي بجديد، فلا تنسَ أننا تدربنا معًا على أساليب القتال، وإني لأعرف وأحفظ كل حركةٍ ستقوم بها حتى قبل أن تفكر بها).

قال (الفاتح) لنفسه في أعماق تفكيره:

(بالحق تتحدث أيها الأحمق كيف لي أن أهزمك؟! ستظل المعركة بيننا سِجالًا لا فائزًا بها ولا مهزومًا).

و لما واتته فكرة، فوجئ بضربة سيف تشج خوذته من قوتها، لتصنع جرحا بجبهته، فلاحت من (فلاد) نظرةً مليئةً بالتشفّي والنشوة، حينما رأى الدماء تتساقط على وجه السلطان الذي بدأ يتقهقر إلي الخلف مع كل صدة سيف من (فلاد) حتى التصق ظهره بنافذة كبيرة يواريها ستارًا ضخمًا، والذي سرعان ما قام (الفاتح) بإزاحته لتهجم الشمس مباشرة مستبشرة، وهو يقول:

(فلينقشع ظلام الفاسدين). وضع (فلاد) يديه على عينيه وصرخَ صُراخًا شديدًا وهو يعاني الألم، ولم يتوانَ (الفاتح) أن غرس سيفَه بقلبِه لتنفجر منه الدماء ساخنةً تفوح منها رائحةً نتنة.

جثا (فلاد) على ركبتيه وهو يتأوه من الألم، وقال وهو يتحسس أول طريق الموت:

(ويحي لقد أحييتَ لدي ذكرى من مماتها، فقد دعا عليَّ أحدُ قتلاي قبل أن أقتله وهو ممن تدعونه من الصالحين، وكلمة الصلاح أبغضها بغض الموت الذي بت أشتمّ رائحته، فهي كلمة الضعفاء، أحسَبُ أن دعوتَه قد تحققت فقد دعا

عليّ أن أذوق ضعف الممات، ويحي إني أشتم رائحةَ الموت وأبغض أنك قاتلي، فإن كنتُ قد قُتلت على يد رجلٍ آخر غيرك لكانت قِتلةٌ واحدة). قال (الفاتح) ممتعضًا:

(يالا ذلك العقل يعي إلا أنه في رأس ثعبان، يضخ سمًّا آتٍ من قلب الجحيم، فبعدًا وسحقًا لأمثالك من الفاسدين).

سقط (فلاد) أرضا بعد أن خارت قواه إيذانًا للوحش الذي يُهزم عنده كل جبار، ويُكسر عنده كل متكبرٍ آثمٍ، إنه الموت الذي انقض عليه ليساويه بالعدم.

دخل أربعةٌ من جنود (الفاتح) فوقعت عينا أحدهم على جثة (فلاد) ، فامتقع وجهه، لبشاعة وجهه فلقد كان متصلبًا كمن لاقى أقسى أنواع التعذيب، أيّد هذا عيناه الشاخصة إلى مصيره المحتوم.

أشار (الفاتح) إليه، وقال بصوت أجش صارم:

(اقطع رأس هذا المجرم ولنصحبها معنا ليراها الناس بأعينهم وليوقنوا من موت هذا الشيطان).

استلّ الجندي سيفه، واقترب من الجثة، ولم يخفَ عن السلطان ذلك الخوف المتبدي على وجه الجندي بعد أن شعر أن الجثةَ تكاد أن تنطق، فصاح به:

(تشجع.. ابتر بسيفك رأس الشر).

كانت جملة (الفاتح) كفيلة بتأجيج نار الحماسة داخل نفس هذا الجندي، فرفع سيفه إلى الأعلى ثم هبط به، ليفصل رأسه عن جسمه، لينهمر شلالُ دماءٍ لا يتوقف.

يكاد السلطان يجزم أنه يسمع صرخات هؤلاء الضحايا والدماء تتدفق منه كالأنهار، وكأن هذه الدماء دمائهم، أما الجسد المفصول عنه الرأس، فبدا أجوفًا تفوح منه رائحة القسوة والوحشية.

ندت عن السلطان نظرةَ احتقار وهو يلقي النظرةَ الأخيرة على هذا الجسد، وغادر القصر تاركًا خلفَه لعنةً سكنته لأبد الآبدين.

***

(15)

وقف في صحراء جرداءٍ غير واضحة المعالم، والجو حوله ملبّدٌ بالغيوم، الرؤيا غير واضحة، حاول أن يفتح عينيه عن آخرهما، كي يستوضح الرؤيا حتى لاح شبحٌ آتٍ من بعيد، وما إن اقترب حتى ذُهل لمّا رأى جسدًا بلا رأس.

وصوت صرخات تسبحُ في المكان كله، التفت (نجيب) إلى يساره ليجد ذلك الجندي وهو ممسكٌ برأس (فلاد) ، فنظر إلى تلك الرأس فوجد العينين شاخصةً والفمَ مفتوحا على مصراعيه، ليضحك ضحكةً هستيرية، صاح هذا الجندي في قنوط قائلا له:

(يا مولاي جريمةٌ جديدةٌ قد ارتُكبت!).

كرر الجملة مرةً أخرى:

(أفِق يا مولاي جريمةً جديدة قد ارتُكبت).

ظل يكرر الجملة حتى شعر بأن الحقيقة والخيال عنده يختلطان حتى فتح عينيه ليجد نفسه بالغرفةٍ راقدًا على سريره وصوت الخادم يقول له مع طرقات على الباب:

(أفِق يا سيدي جريمةٌ جديدة قد ارتُكبت!).

***

ظل المحقق وقتًا طويلًا أمام جثة (ينال) لا يصدق أنه يُعاين جثةَ الرجل الذي أعانه على مشواره حتى الآن! لا يصدق أنه قُتل بهذه السهولة، اقترب منه ليلاحظ الجرح ذاته بالجانب الأيسر من رقبته إلا أنه غائرٌ هذه المرة، هذا بجانب جحوظ العينين، والجثة بدت جافة، امتُص منها كلَّ الدماء فبدت كالخرقة، كَشف عن بطنه ليجدَ منقوشًا على بطنه بوحشية عبارة (قُتل بسببك!».

قال لرجال (آنجين) بلهجة آمرة:

(اقلبوه على بطنه). التفت أحد العساكر إلى (آنجين) فأومأ له بإطاعة أمره، لم يكن (نجيب) المختص بالتحقيق، وهذا أمرٌ طبيعيّ فهو بدولةٍ غير دولته، ولكن (آنجين) تركه يقوم بدور المحقق لدقته التي تلمسها من معاينة جثة (حسام)، لقد اعترف بينه وبين نفسه بتفوقه وقدرته على الإلمام بأدق التفاصيل.

عبارةً أخرى قرأها (نجيب) منقوشةً بالدماء وهي:

(أصبحتَ لعنةً تُصيب مَنْ حولك).

الشعور بالذنب أو الإيحاء بالشعور بالذنب هي من وسائل الإيلام التي يسعى إليها الشيطان، والشيطان هنا ليس هذا العدو الأزلي الواقف للإنسان صراطه المستقيم، وإنما ذلك

الشرير الذي يشطُّ عن كل ما هو فطريّ ولد به الإنسان وفُطم عليه.

راح (نجيب) - أو (الفاتح) إذا صح القول- إلى العم أركان ليصبَّ إليه جمَّ غضبه وحزنه، وغضبه هو الأعلى، فقال وهو يحاول أن يستجمع قواه:

(لقد انتهت الرواية وحان وقتُ التحرك، فلا سبيل إلا المواجهة). قام في عصبية، وضرب بقبضته القوية الحائط ثم قال:

(هل كنتُ أضيع الوقت؟ هل تلكأتُ فكنت سببًا في مقتل (حسام) و ينال؟. قال العم (أركان) مشفقًا:

(لا يا ولدي لا تَقْسُ على نفسك، لقد فعلت ما هو متوجبٌ عليك، فلابد قبل أن تواجه عدوك أن تعرفه، فهل عرفته الآن؟).

(نعم عرفته وعرفت مكانه، إنه في ذلك القصر اللّعين بترانسلفانيا).

(الأهم من ذلك أنك عرفت من تكون أو بمعنى أصوب، تذكرتَ سيرتك الأولى). استطرد العجوز قائلا:

(ولكن كيف ستذهب إلى هناك؟!).

دعا الخادم الذي أتاه على الفور، فقال العم أركان وهو يربت على كتفه:

(هذا الخادم المخلص سيكون رفيقك في رحلتك الشاقة). (ولكن يا جدي أنت بحاجة إليه أكثر مني).

(ليس أهم من مهمتك أعانك الله عليها وإني لولا كبر سني وأني على أعتاب الموت، أنتظره بين الحين والآخر لكنت رافقتك، ووهبت لك ما تعلمته وما اكتسبته من خبرة، ولكنني أرسل معك خادمي مساهمًا معك في رحلتك، وإنه لَيحمل نصيبا من اسمه، فاسمه (كيفانش)، ويعني بلغتنا الشخص الجدير بالثقة).

ابتسم (نجيب) ابتسامةً باهتةً وهو يقول موجها حديثه للخادم:

(أيُعقل أن أعرف اسمَك الآن فقط؟!). قال الخادم بنبرة الخبير:

(كل شيء بقدر يا سيدي). قال العم (أركان) :

(الآن وضحت عندك الأمور واكتملت). (نعم يا جدي وحان وقت الرحيل). وبنبرة جادة - يسمعها المحقق لأول مرة- سأل العم (أركان) :

(وهل عرفتَ مهمتك؟).

(نعم.. سأقتله ولأقطع دابره). (لا فإن قتلته، فسيعود). سأل (نجيب) مندهشا:

(كيف ذلك؟!).

(سيعود في جسد آخر، كما عاد أول مرة). فسأل (نجيب) مندهشا:

(ماذا أفعل إذن؟!).

(عليك أن تُرجع الأمورَ إلى نِصابها!). أشار له بالاقتراب، ليهمس إليه بشيءٍ بإذنه.

***

لم يشأ المحقق أن يخبر (آنجين) برحلته الأخيرة أو أن يطلب منه أن يرافقه في حربٍ لا يعلمُ نهايتَها إلا الله، فقد رأى أنه ليس طرفًا في قضيةٍ هو الطرف الأصيل فيها، كما أنه لا يحتاج لأحد يحميه من الخوف، فهو لا يداخله هذا المرض الخبيث الذي لا يجد ضالتَه إلا في النفوس الضعيفة التي غاب عنها العقل، إنه فقط يخشى ألا يُتمَّ مهمتَه أو أن يموتَ دون تحقيقها، فإن حدث أحدُ الأمرين، فسيترك وراءه وحشًا آتٍ من ماضٍ سحيقٍ يَلْتهمُ كلَّ من يقابله، إلا أنه عاد

لينظم تفكيره، ويتذكر أن له قُدُرات عظيمةٍ لابد أن يثق بها، قُدُرات سلطان نَهلَ مِن العلوم أعظمَها، من الحِيل والخِطط العسكريةِ أثقلَها وأنفعَها.

ها هو يقوم بالنصف الثاني من رحلته ويركب طائرةً متوجهةً إلى مدينة ترانسلفانيا، دقات قلبِه تستطيع أن تسمعها، إنها دقاتُ الاستعداد لحرب باتت وشيكةً، دُق طبولها، ولكنها حتمًا ليست كأيِّ حربٍ إنها حربُ العقل وليس السلاح أو الجسد.

التفت إلى (كيفانش (فوجدَه مُغْمَض العينين، يبدو أنه في حالة هدوء وسكينة، هو هدوء التأهب للعاصفة.

هو الآخر استسلم لتلك الحالة من الهدوء وغفى مريحًا عقلِه مؤقتا من التفكير.

***

الآن وقد عرفتَ من تكون! فأنت مستعدٌ للقاءٍ أنتظره بفارغ الصبر، أعرف أنك قادم إليِّ، ستسألني كيف عرفت؟! اعلم يا سيدي أنَّ بين أرواحِنا رابطةً قويةً قد رُسِّخت منذ زمنٍ بعيدٍ، تجعلني أتلمَّس خطواتك كلها، وأنت الوحيد الذي لم يمكنني من قتلك أو مص دمك فإنك تملكُ من القُوى ما يجعلك نِدًّا لي، واعلم يا صديقي أن كلانا ميّت، لا ينطبق علينا قانون

الأحياء كالأحياء الباقين، فلقاؤنا هنا لا يتأرجح بين الحياة والموت.

منتظرٌ قدومك ليلًا، حيث تنام الناسُ وتغفو الوحوشُ، ويستيقظ الموت يتحسس فرائسَه، الليل يا صديقي ستارًا لأمثالنا من أصحاب المواهب، ولتكن ليلةُ هذه المقابلةِ ليلةً يشهدُ لها التاريخُ!

***

أفاق (نجيب) مِن غفوتِه بعينين نصف مفتوحتين فإذا بشبحٍ أمامَه يغلبُ عليه السواد، كُلَّما اتضحت الرؤية كلما تبيّن له أنه الشخص ذاته الذي يطارده، شخصٌ اتشح باللباس الأسود ذاته بلون الموت، ووجهه الذابل الخالي مِن ثمة حياة وعيناه الجاحظتان، فتح (نجيب) عيناه عن آخرهما ليستبين أن ذلك الشبح لم يكن سوى المُضيفة التي كانت تنظر إليه في دهشة، فسألته مشفقةً:

(هل أنت بخير يا سيدي؟!).

حاول أن يتجاهل الحالة التي كان بها، فنفض دماغه ثم التفت إليها قائلا:

(أنا بخير.. هل لي بكوبٍ من النسكافيه؟).

أومأت المضيفة برأسها وغادرت بينما غاص (نجيب) بفكره في تلك الرسالة المرسلة إليه من العالم اللا محدود!

***

هبطت الطائرة في مطار ترانسلفانيا، ومال المحقق نحو الخادم قائلا له:

(لابد لنا من سيارةٍ تقلُنا إلى ذلك القصر).

قال الخادم وهو يومأ برأسه:

(لا تقلق يا سيدي).

(وضاعف له أجره؛ لأنه سيقلنا بين عويل الليل ونحيب الأرواح المعذبة).

غاب الخادم عنه وأتى له برجل في منتصف العقد الخامس من العمر، يعتمر قبعةً صغيرة، اقترب المحقق منه وسأله:

(هل قبلت أن توصلنا إلى القصر؟).

(نعم يا سيدي).

فعاد المحقق ليسأله بهدف التأكيد:

(ستوصلنا ليلًا؟!).

ضحك السائق قائلا:

(أعلم أنه دارت حول ذلك القصر الأقاويل، إن مالك ذلك القصر، قد بُعث من جديد بعد أن قتله السلطان (محمد الفاتح)، وهو ما يثير خوف الناس منذ ذلك الزمن حتى الآن، ولكني وإن سرت مثلما سار الآخرون في طريق الخوف، فلن ارتزق أو أسدّ رمقي ورمق أسرتي).

اتفق المحقق معه أن يتقابلوا عند الغسق ليقلهما من المطار إلى الهدف المنشود، تركهما السائق، بينما اتجها هما إلى مقهى ملحقًا بهذا المطار، ليتناولا وجبةً صغيرة أتبعاها بكوبين من النسكافيه.

جاء السائق في الميعاد المتفق عليه ليقلهما إلى القصر، سارت السيارة في طريق مختصرةٍ مخترقةٍ تلك الأحراش التي على جانبي الطريق، يكاد المحقق يجزم أنه يسمع صرخات وأنَّاتِ أُناسٍ يُعذّبون ثم ليسمع صوتَ بُكاء سيدةٍ، التفَت إلى الخادم ليستشف منه، إن كان يسمع هو الآخر هذه الأصوات مثلما يسمع، ولكنه لم يستطع أن يستنتج من ملامحه الثابتة التي لا تعكس أيّ شعورٍ، إلا أنه فوجئ به يلتفت إليه ليقول له:

(لا تشغل بالك يا سيدي سوى بما أنت قادمٌ إليه).

بدأ المحقق في سماع صوت حيوانٍ يركض وسط

الحشائش، وبدا وكأن هذا الحيوان يقترب من السيارة، في هذه اللحظة كان المحقق مُسخِّرًا سمعَه لذلك الصوت، فكان منتظرٌ بين الحين والآخر أن يظهر هذا الحيوان، إلا أنه في الأخير لم يظهر شيءٌ، واختفى الصوت تمامًا.

عاد إلى تدريباته التأملية السابقة فأخذ في التنفس العميق، ثم زفر بقوة مع إبقاء عضلات بطنه مشدودة، وهو يقول لنفسه:

(مما لاشك فيه أنه يراقبني بطريقة ما، إنه يريد أن يبث في الخوف، يتمنى لو أن أُهزم قبل أن أخوض المعركة).

ما إن توصل لهذه الفكرة حتى سمع صوتَ ضحكاتٍ شيطانيةٍ حملها نسيم هادئٌ إلى مسامعه.

عاد ليقول لنفسه:

(لا تمتثل لنزعاته، فأنت عليم بما لا يعلمه العوام).

بلغت السيارة أخيرًا القصرَ، وقرُبت اللحظة الحاسمة، وقال السائق موجهًا حديثَه لنجيب:

(إذا أردت أن تعاود أدراجك، فلازلت هنا).

رغم أن كلمات السائق لا تَحمل في طياتها سوءً إلا أنها بالنسبة للمحقق بمثابة تَثبيطٍ للهِمَمِ، فهو لم ينسحب من

أيِّ معركةٍ خاضها من قبل، أشار له بالمغادرة ثم التفت إلى الخادم ففوجئ به قد اختفى، فأخذ يدور حول القصر، وفجأة عادت تلك الضحكات المخيفة المقيتة لتدوي مرةً أخرى، وجد بوابة القصر مواربة، ففهم ولاريب أن (فلاد) يعلم علم اليقين بقدومه وينتظره كما أخبره في حلمه، قرر أن يدخل القصر فوجد مشهدًا صعقه حقيقةً! فلقد رأى هذا المجرم بجميع أوصافه من نحافةِ جسدٍ وطولِ قامةٍ ووجهٍ ذابلٍ كوجهِ الأموات، غلَّفَ جسدَه بلباسٍ أسودٍ، كان يرفع الخادم لأعلى وقد فارق المسكينُ الحياةَ، وفي حالِ ارتخاءٍ تام، قال (فلاد) بلغةٍ ساخرة:

(أتبحث عن هذا الرجل، عذرًا فالاحتفال لعضوين فقط، هكذا سيكون الأمرُ ممتعًا جدا).

قالها وألقى بجثة (كيفانش (في استخفاف، والمحقق ردَ بصوت يملؤه الحنق:

(سفَّاك حقير). قال (فلاد) كأنه لم يسمعه:

(تفضل فالحديث بيننا طويل لن ينتهي). (لا يا عدو الطبيعة، سينتهي هنا كل شيء، وليقطع دابر الفاسدين).

***

(16)

جلس المحققُ في مواجهة (فلاد) ، الصمت بينهما قاتمٌ مخيف، قطعه (الثاني قائلا:

(هذه الجلسة سيشهد لها التاريخ، كما شهد لها أول مرة، نحن يا سيدي قُطبي العالم، نتناحر فتهتز الأرض بأكملها، دون أن يدري قاطنيها ما سبب اهتزازها، لقد نشأنا معًا، وتلقينا نفس العلوم، وتدربنا على القتال معًا وأتقناه معًا، فلا يستطيع أحدٌ أن يرجِّح أحدَنا على الآخر، مِثْنا على اختلاف أسباب ميتتنا، وعدنا في ثيابٍ مختلفةٍ). سكت لحظةً قصيرةً ثم قال وهو يرقب تلك التغيرات التي طرأت على وجه (نجيب):

(إني لأندهش حقًا لنعتك لي بالسفاك! فأنت تعرفني حقَّ اليقين). (نعم أعرفك، فأنت من أعتى المجرمين الذين أتَوْا من بطن الجحيم، لتسوم هؤلاء الأبرياء العذاب، ولكن أفعالك دومًا ما تدمي القلوبَ الحيَّة التي لا تعرف سوى الحب والسلام).

راح (نجيب) يتذكر موقفًا دار بينهما، لما كانا في عمر الصبا، راح يتذكره بكل تفاصيله، كأنه يعايشه.

***

وقف (فلاد) بخيله بجوار خيل الأمير (محمد)، اقترب منهما رجلٌ ثالث يمتطي خيلَه، همس (فلاد) في أذن الأمير قائلا: (هذا المدرب نحيلٌ لدرجةٍ تظنُ معها أن روحه ستخرج منه في الحال)، لم يرد عليه الأمير الذي كان في كامل تركيزه في التدريب.

أمرهما المدرب أن يتجولان في الغابة - التي كانت بمثابة ساحةِ تدريب ، بحثا عن غزالةٍ وأن يتتبعاها، ليتبارا، من سيقوم باصطيادها.

مال (فلاد) إلى الأمير يقول له:

(هل ترى أن لهذا التدريب جدوى؟!).

لم يرد عليه الأمير كعادته، فإذا ب»فلاد (يصيح:

(ها هي غزالة!). و أتبع قائلا:

(الحق بي يا بطل). ركضا بخيلهما، وقال (فلاد) متحدِّيًا:

(لن تسبقني أيها الأمير الضعيف).

واشتد في ركضه، فاشتد (الأمير) بدوره في الركض بكل ما أوتيَ من قوة، ولكن كان التفوق حليف (فلاد) في آخر الأمر، الذي رمى الغزالةَ بسهمٍ ليستقرَ بمنطقة غيرَ مميتةٍ بها، فسقطت تعاني الألم قال (الفاتح) مشفقا:

(يجدر بك ذبحها الآن).

ندت عن ذلك الضبع البشري، ضحكةً سَمِجَة وأمسك برقبة الغزالة ليكسرها بعنف، فصاح الأمير:

(يالك من وغد).

ضحك (فلاد) ضحكةً هستيرية، وقال بصوت متقطع:

(نعم إني أتذكر وجهك الذي رُسمت عليه الشفقة، فبديت كطفلٍ رقيق).

قالها، ثم عاد ليضحك، و(نجيب) ينظر إليه في اشمئزازٍ فصمتَ الآخر وقال بوجه جاد:

(حسنًا دعنا نتحدث بجدية الآن هناك موقفٌ لم تذكره أسمح لي أن أذكرك به).

***

أمام ذلك القصر وفي شارع فسيح دُقت الخوازيق وتجمع الناس يشاهدون إخوانهم من الأبرياء وهم يلقون مصيرَهم المؤلم المشؤوم، كان يختلط فيما بينهم النحيب والصرخات، ورجلٌ واحد صامت يغطي رأسَه غطاءٌ بُنيٌّ تلوح منه لحيته البنية، ينظر ولا يردد سوى:

(لعنة الله عليك يا سفّاك).

يرفع رأسه وهو يشاهد رجلًا يُلقى من أعلى ليسقط على الخازوق فتعلوا الصرخات تصمُّ الآذان وتُدمي القلوبَ، فتمتم قائلا في استياء: (

ألا لعنة الله على القاتلين التي انسلخت عنهم الإنسانيةُ، فانمسخوا لأبشع المخلوقات وأحقرها).

***

قال (فلاد) ساخرا:

(كنتَ تعتقد أنني لم أعرفك حتى لو كنت متخفيا في ذلك الغطاء البُنيّ، بل عرفتك وكنتُ منبهرًا بك، فأنت شجاعا، لتأتي إلى إمارتي وحدك).

تكلم (نجيب) ليكسر حاجز صمته قائلا:

(كفى هُراءً، لأنهي ما جئتُ من أجله).

(لا تتعجل يا صديقي.. أعلم أنك متعجل للخلاص مني... ولكن يجب أن تعلم أن كلَّ شيء تغير، ولم يعد كسابقه، المسألة ليست نزالٌ بالسيف أو حتى بحمل بندقية).

نهض من مقعده، واتجه لأحد الأرفف خلفه، وأحضر رقعةَ شطرنج كبيرة ليضعها أمام المحقق، بدت كرقعة شطرنج بشكلها المعهود، ولكن شعر المحقق منها بشيء عجيب، فقد

بدت الرقعة وكأنها تتحرك! كأنها موجاتٌ بحر هادئ، سأل المحقق في استغراب:

(ما هذا؟!).

(إنها رقعة شطرنج كما تعلم، ستكون رقعة الشطرنج ميدان قتالنا وستكون قطع الشطرنج جنودنا... هي لعبة شطرنج بالتأكيد، إلا أنها ليست تلك اللعبة التي اعتدنا على لعبها، صدق شعورك الذي أرى أماراتِه على وجهك، صدق ذلك الشعور الخفي الذي بات يخبرك أن بهذه اللعبة شيءٌ غريب غامض، فإن هذه اللعبة ترتبط بالفلك والزمن برابطٍ سريٍّ، كلُّ حركة من حركات قطع الشطرنج، تُحدد مصيرَ إنسان).
صمت المحقق دون أن ينبس بكلمة، فانتهز (فلاد) ذلك معقبا:

(عِلم الفلك يا صديقي، الذي يجب أن تعترف أنك قصرت تقصيرًا شديدًا في تعلمه والإلمام به).

انتهى (فلاد) من صف القطع على تلك الرقعة، حتى فُتحت طاقةٌ في الجدار على يسار المحقق، الذي شاهد صورًا لأشخاصٍ يعرفُهم حقَّ المعرفة، هم، اللواء الهمشري والمحقق آنجين، والعجوز (أركان). قال (فلاد) :

(الغريب أنك وحيد، فوالديك ميتان وليس لك أشقاء وغير متزوج، فليس لديك عزيز، إلا أنك يا عزيزي، قد يدمو قلبك

الصغير حينما ترى من يموت أو يهلك). أتبع قائلا:

(بالطبع ستلعب بالقطع البيضاء).

مرر (نجيب) ناظريه بين تلك القطع، فاسترعى نظره ذلك البيدق الأحمر!).

حان الآن وقت اللعب أو بالأحرى بداية المعركة، بداية النهاية، بداية نهاية حرب بين قوتين متكافئتين على حد قول ذلك السفّاك محب الدماء.

حرك المحقق بيدقًا أبيضًا وقال:

(الشيء الذي لم أجد له إجابة حتى الآن، ما هو دافعك لقتل أعضاء مسابقة أدبية؟!).

سكت لحظةً ثم قال مستدركا:

(بل لماذا لجأت لباب الكتابة والأدب من الأساس؟!). (لأنَّه بابُ مخاطبة العقول يا عزيزي، وأنا من خلال تربيتي في قصركم، أتقنت لغتكم وقرأت الآلاف من كتبكم الزاخرة، فتعلمت وعرفت أن أقصر الطرق هي الولوج للعقول. والآن حان دوري في تحريك بيدقي).

حرك بيدقَه فصدر صوتٌ كموج البحر حينما يهيج غاضبا، نظر المحقق نظرة شاملة سريعة على الرقعة ثم بادره بسؤال

آخر:

(وبالطبع كنتَ تعرف أنني مَن سيتولى التحقيق في مقتلهم؟!).

(بالطبع يا صديقي، ما فعلته كان بمثابة الطعم؛ لأخرج به الأسد من عرينه). (أخبرني، ما الذي تستفيده من إماتة الناس؟!).

(إن إماتة الناس أمرًا ضروري، لا بد أن يحدث الموت كي يكون هناك حياة، لابد أن يموتون هم لكي يعيش مثلي ومثلك، أنت تعتقد في عِلم (تناسخ الأرواح) ولكنك نسيته، وأني لمّا أُزهق روحَ بريءٍ من هؤلاء ممن تدعونهم أبرياءً، فيدخلون الجنة كما تؤمنون، إذن فأنا نافعه وليس بضاره، تخيل لو أن هناك عجوزًا فقتلته فماذا يُضيره إن اقتُطع منه بعضُ السنين، في النهاية مصيره الموت، وهو مصير الجميع أيضا).

قام المحقق بحركته الثانية وهو يسأل مستنكفا:

(وما ذنب هؤلاء الأبرياء كي تسلب منهم حياتَهم؟!).

(ذنبهم أنهم لا يفكرون، المرء هو من يختار ألا يفهم، كثيرا ما ترسل إليه رسائلَ من أجل أن يعي ويفطن إلا أنه لا يعقل أو يفهم).

قال وهو يقوم بتحريك بيدقه:

(لذلك فأمثالنا يستحق العيش؛ لأننا فهمنا، وأعملنا ذلك العقل الذي هو سيد الهبات على وجه الإطلاق، ولأننا ذوي نفع لبقاء الأرض حية تتنفس).

حرّك المحققُ قطعتَه وهو يقول مشمئزا:

(ولكن الأرضَ الآن تتنفسُ هواءً ملوثًا ممزوجًا برائحة القتل والدماء).

ضحك (فلاد) ساخرًا ثم قال:

(صدقني يا صديقي الّدود، هؤلاء ممن يُدعون بالأبرياء والذين تلومني فيهم، قد اختاروا حياتَهم هذه، اختاروا أن يريحوا عقولهم فأرهقوا أنفسَهم).

أتبع قائلا وهو يلعب:

(والآن كفانا كلامًا ولنركز على حربنا الضَرُوس).

كانت كل حركة يقوم بها (فلاد) يصاحبها صوت موج البحر الغاضب، ولاتزال صور ضحايا (فلاد) البارزين من تلك الطاقة لا تفارق ناظري المحقق، فشعر بتشتت لم يمر به في حياته، حتى قام بتحريك قطعتَه دون تركيز، فتابعه الآخر بحركة مفاجأةٍ ليستبعدَ وزيره، فدُقت طبولُ الخطر، وأشار

(فلاد) إلى تلك الطاقة قائلا:

(انظر إلى رئيسك الهمشري المسكين وهو يموت).

أخذ (نجيب) يراقب رئيسه وهو يتلوى على سريره حتى لفظَ آخرَ أنفاسِه، وسقط يعاني السكوت، شعر بتلك الرعشة التي امتلكت جسده، ودارت الدنيا من حوله لتدور معها مشاهد جميع الجثث التي عاينها، بدءً من أعضاء اللجنة، ومساعده حسام، وينال ، انتهاءً باللواء الهمشري.

كان من الطبيعي أن تفلت زمام الأمور من المحقق، فبدأت المعركة منذ موت اللواء الهمشري تميل إلى جانب (فلاد) ، حاول المحقق جاهدًا أن يقوم بتنظيم نفسه كما تدرب كي يستعيد لياقتَه الذِّهنية، إلا أن تأثير خصمه أقوى وأشد، فكانت حركاته التالية بمثابة المجازفة ودون كامل تركيز، كان (فلاد) يتوغل وسط صفوفه في شيءٍ من اليسر، حتى جاءت ضربتُه الثانية باستبعاد فيلٍ من جيشه، فنظر المحقق بطريقةٍ آلية إلى تلك الطاقة، ليجد مشهد المحقق (آنجين) راقدًا ميتا على سريره وزوجته تهزه في هلعٍ ثم انهمرت منها دموعها حزنًا وكمدا.

قال (فلاد) ساخرا:

(دوما ما تخالف توقعاتي يا صديقي في الوقت الذي

توقعتك أن تكون أشدَّ شراسة، فإذ بي أجدك هزيلًا، قابلًا للكسر، الأمر يُغريني أن أستمتع قليلًا قبل أن أقضي عليك، رغم أن قضائي عليك سيحزنني كثيرًا).

لما لم يجد منه ردًّا، استطرد قائلا:

(ما متعة الحياة إذا لم تجد ندًّا لك ينافسك؟!). قام المحقق بلعبة عشوائية، عكست فقدانه التام للتركيز، فتبعها الآخر بلعبة سحقت الفيل الآخر، ليرى (نجيب) العم (أركان) وهو يشخص بصره إلى أعلى وكأنه ينظر إلى روحه وهي تحلّق بعيدًا عن جسده.

طقطق (فلاد) رأسه وهو يقول بلغةٍ استفزازية:

(هيا أيُّها البطلُ حاول أن تفكر، أم أن عقلك قد اعتراه الصدأ؟).

نظر المحقق إلى تلك الساعة القديمة المعلقة بالجدار عن يساره، استغرب من مشهدها أنها حقًّا ساعةٌ مُخيفة مقبضة، أشار عقربيها إلى الساعة الثانية عشر صباحا، عاد ببصره مرة أخرى إلى رقعة الشطرنج، يتفحص ما تبقى له من الجيش والذي إن نطقت قطعه، فسوف تنطق بالهزيمة والاستسلام، إلا ذلك البيدق الأحمر الذي التفت إليه فجأة، فعقد حاجبيه مفكرًا: إنه لم يفكر أن يستخدمه منذ بداية اللعبة إلى أن

تعقَّدتِ الأمور.

أمسك به في عدم اكتراث وأداره في عشوائية، وجد (فلاد) يطقطق رأسه، ويقول بلغة استفزازية:

(هيا أيها البطل حاول أن تفكر، أم أن عقلك قد اعتراه الصدأ؟!).

قال لنفسه مندهشاً: (هذه الجملة قد تكررت!)، نظر إلى ذلك البيدق الأحمر وقد ارتسم على وجهه علامة استفهام! أدار ذلك البيدق بذات الحركة العشوائية، فوجد (فلاد) يقول له:

(ما متعة الحياة إذا لم تجد ندًا لك ينافسك؟!). شهق قائلًا في أعماق نفسه: (يا إلهي الحدث يتكرر عندما أقوم بدوران ذلك البيدق عكس عقارب الساعة!). التفت في سرعة إلى الساعة فوجدها الساعة الثانية عشرة صباحا إلا الربع، فأسقط في يده، ولكنه فهم الآن، فعندما يحرك البيدق الأحمر عكس عقارب الساعة، فإنه يرجع بالزمن، وبالتالي فإنه يستطيع استعادةَ كلٍّ من اللواء الهمشري وآنجين والعم (أركان) ومن قبلهم الخادم (كيفانش (بالرجوع إلى أزمانهم، بل الأبعد من ذلك وإن صحَّ تفكيره فإنه سيتمكن من استعادة (ينال) ومساعده النقيب (حسام) وقبلهما الأربعة أعضاء وهم مبتدأ تلك القضية! والملاحظ هنا أن ذلك البيدق الأحمر لا يؤثر في مُحركه، بل يؤثر في الخصم فقط، كيف

لم يفهم ذلك منذ بادئ اللعبة وقد أخبره ذلك الشيطان أن تلك اللعبة ترتبط بالفلك والزمن؟! هنا عرف أن استبعاد أيّ قطعة من قطع جيشه يمثل حركة زمنية، وصدق ذلك الفلاد حينما قال: إن الحياةَ تعرضُ عليك أسئلةً، وعليك أن تجيب عليها، لم يخفَ على المحقق وقد لفت نظرَه حقيقةُ أن جيشه الأبيض فقط هو من يحتوي على البيدق الأحمر دون الجيش الأسود، وكأنّ قُطبَ الشرِ أراد أن يقول له: إذا فطِنتَ لِما عرضته عليك فستنجو، إن الفكرةَ الآن بدأت في الاختمار، وخاصةً بعد أن تذكّر ما قاله العم (أركان) عندما مال إليه:

(أنت لا تقتل مَن كان مِن قبل ميّتا). أنارت فكرةٌ في رأسه وقال لنفسه وهو يكمل عبارة العجوز قائلا:

(بل لأعيد الأمورَ إلى أولها). ما هي إلا حركة واحدة، أيها الوغد ولتذهب إلى حيث مآلك، نظر إليه نظرةً حاسمةً وقال له:

(لتعود أيها الثعبان إلى جحرك، إلى قبرك بلا رجعة). وأدار البيدق بقوةٍ عكس عقارب الساعة، فاختفى ذلك المشهد، اختفى كلُّ شيءٍ وكأنَّ شيئًا لم يحدث!

***

(17)

يوم الإثنين الموافق 1/6/2020........ هل تذكر ذلك التاريخ؟

رَفع المقدم (محمد نجيب) رأسه بعد أن كان يُريحها على راحة يده اليسرى، يحاول أن يرتاح قليلا من التفكير المستمر، أمسك بتلك الجريدة الموضوعة على مكتبه، فأخذ يقلب فيها، ليصل إلى صفحة الأدب، ليقرأ خبرًا عن إعلان عن فتح باب استقبال قصصٍ قصيرة لمسابقة أدبيه شهيرة، تابع قراءة تفاصيل ذلك الخبر، ليقرأ أيضًا أن السيد (مرتضى عبيد (رئيس لجنة المسابقة صرح قائلا:

(إن من شروط المسابقة هذا العام، أن تدورَ القصة حول ما وصل إليه الناس نتيجة انتشار الفيروس المسمى (كوفيد 19)! وأضاف أنه حقًا سعيدٌ بتلك التجربة ومتشوقٌ هو وباقي الأعضاء لقراءة ما ستدونه الأقلامُ المبدعةُ مِن قصصٍ يسحرون بها العقول).

طُرق البابُ في تلك الأثناء، ليدلف من خلف الباب النقيب حسام يلقي عليه التحيةَ، ويخبره أن اللواء الهمشري يريد أن يجتمع بهما بمكتبه، فأشار (نجيب) إليه بالجلوس بعد أن استرعاه مشهدًا بذلك التلفاز الموضع أمامه، مشهدًا لقصر

(طوبى كابى (ومقدم البرنامج يجلس أمام ذلك القصر، وهو يحاور أربعةَ رجال من بينهمٍ رجل بلغَ من العمر عِتيًا، قال المذيع مقدما ضيوفه (ينال والعم (أركان) وهذا الخادم (كيفانش) إنه خادم العم (أركان) فقد حضر معه ليعينه على السير وليلبي ما تيسر من طلباته، والمحقق (انجين).
أخذ المقدم يوجّه أسئلةً عليهم حول قصر (طوبى كابى)، ووصل بأسئلته إلى العجوز (أركان) وقال في أدب مصحوب بابتسامة رقيقة:

(سمعنا كثيرًا عن درايتك الكبيرة بالتاريخ ورواياتك الشيقة عنه، هل تسمح لنا بأن نطلب منك أن تروي ولو جزءً بسيطًا مما كان يجري بين أركان ذلك القصر العتيق؟). أشاح العم (أركان) في ضيق وقال:

(يا ولدي إني متعب الآن ولم أعد أملك القوة على الحكي كما في السابق). تنحنح المذيع في إحراجٍ، وتوجّه بسؤاله إلى (انجين):

(أعطِنا نُبذةً يا سيدي عن اختصاصك). قال (انجين) بابتسامة قصيرة:

(أختصّ بالتحقيق في قضايا السرقات، ومشرفٌ على التدابير الأمنية بقصر (طوبى كابى) وعلى حماية ما به من مقتنياتٍ أثرية غاية في الأهمية، كسيف السلطان (محمد

الفاتح)، ونحن نوفرُ كل الوسائل الأمنية لضمان سلامة القصر وما فيه من كنوز قد استودعها لدينا التاريخُ أمانة بعنقنا). قال المحقق وهو ينهض:

(هيًّا بِنا إلى اللواء الهمشري). سبقه النقيب (حسام) إلى خارج المكتب، بينما أخرج المحقق من جيب بنطاله الأيمن بيدقًا أحمرًا، أمعن النظرَ إليه، ثم وضعه على المكتب، لينتهي عنده المشهد، ولينتهي كلُّ شيء.

***

تمت بحمد الله 6/11/2020